S A I D K H A T I B I

سعيد خطيبي

جنائن الشرق الملتهبة

رحلة في بلاد القبائل

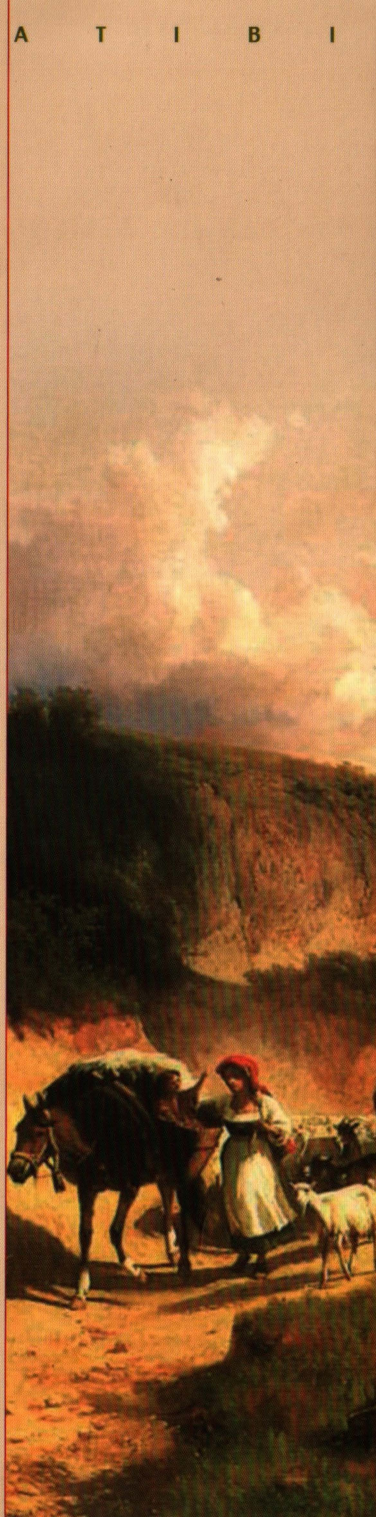

مكتبة نوميديا 42
Telegram@ Numidia_Library

جنائن الشرق الملتهبة: رحلة في بلاد الصقالبة / رحلات
سعيد خطيبي / مؤلّف من الجزائر
الطبعة الأولى، 2015
حقوق الطبع محفوظة ©

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص. ب: 44480
الإمارات العربيّة المتّحدة
هاتف 6322079 2 00971
فاكس 6214311 2 00971
e-mail:alrihla@gmail.com
التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com
تنفيذ الغلاف والإشراف الفنّيّ:
عمّان، هاتف 95297109 7 962+ ®
تصميم الغلاف: ناصر بخيت / السودان
الصفّ الضوئيّ: القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: ديمو برس / بيروت، لبنان

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع حبيب أبي شهلا،
بيروت، لبنان، ص. ب 11-5460
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
info@airpbooks.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطيّ مسبق من الناشرين.

ISBN 978-614-419-558-1

جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة 2014 -2015

سعيد خطيبي

جنائن الشرق الملتهبة

رحلة في بلاد الصقالبة

يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجراح

"أغادر سربرنيتسا صباح يوم مّغيّم، وروتيني، أُثري خزان السيارة بنزينا، أحيي عاملة محطة الوقود، واتجه نحو الشمال الشرقي، نحو حدود قريبة، وعوالم إيديولوجية مختلفة، ومتباعدة. وكالعادة، ووفاء للسيرة البلقانية، لم أجد لافتات ولا لوحات إرشادية تدلني على وجهتي نحو حدود صربيا".

من نص الرحلة ص 105

"نظرتْ قليلا في الباسبور الأخضر ثم خاطبتني بالروسيّة. لم أفهم شيئا. فأعادت بإنجليزية خافتة سؤالي إن كنت أتكلم الروسيّة. أجبتها بالنّفي، وحاولت تدارك الوضع سريعا بالإمساك بجواز سفري، وإظهار الفيزا الأوكرانية، لكنها لم تتعامل معي بإيجابية ونادت على جندي آخر، قادني بدوره إلى مكتب تحقيق مجاور".

من نص الرحلة ص 128

"وصلت الميدان، المطوّق بالمتاريس والعجلات المطّاطية والأسلاك الشائكة، لأجد إيفان في انتظاري. كان قد أتمّ للتوّ تسجيل برنامجه الإذاعي الثقافي في راديو أوكرانيا الوطني. وبعد تبادل سريع للتحيّة بدأ في التأفُّف من الوضع: هل شاهدت التلفزيون الرّوسي اليوم؟ يبدو أنهم صارمون في مسعى وأد الثّورة" .

من نص الرحلة ص 131

مكتبة عربية لأدب الرحلة، وأدب اليوميات. من كان يصدق. موسيقى لا تهدأ، وصخب لا ينتهي، وسطور الرحالة مدونات هي لوحات فنية مدهشة ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فياضة، خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيات، حدس شاعري وابتكار فني وجمال في التعبير، خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة فيأتي بالممتع والمدهش. مرايا تتعاكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة وزوايا لم تستكشف يرتادها عاشق مغامر كما يسري تحت جناح الليل للقاء الحبيبة. وهو لا يكتفي بعناقها والبوح بمكنونات قلبه وفكره إليها، بل يستغرق في ملامحها، يناجيها ويسعد باستجلاء خفاياها وكأنه يتأمل نفسه في مراياها... تلك هي الرحلة، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المدن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حية عابرة للزمان كما هي عابرة للمكان.

تَهْدفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتِ أدبِ الرِّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحَّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميَّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة

الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرقِ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيء لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة" تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسمِ صورٍ دنيا لهم، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلِّع إلى المدنيَّة وحداثتها

من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب اليوميات والرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيون تتحوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها.

أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة تؤسس، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمتعةِ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربعِ جهات الأرض وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

محمد أحمد السويدي

إلى بربارا ومُراد وخالد

وحارات غورينسكا البيضاء..

هذا الكتاب

ما الذي بقي للسندباد الجديد، او ابن فضلان عصرنا ليكتشفه في كوكب الأرض؟ يقول الخطيبي صاحب هذا النص: "من بحيرات سلوفينيا إلى سهول كرواتيا، ومن أزقة البوسنة والهرسك العتيقة إلى ساحات صربيا، تجوّلت بالسّيارة برًا في أرض الصّقالبة (المسمَّوْن بالسُّلاف)، وعبرت الحدود بحثا عن الملامح الحقيقية لدول تجمع بينها الجغرافيا، وتفرّقها الصّدامات الدّينيّة والإثنيّة، ثم طرت إلى أوكرانيا، أيام ثورة الميدان، وعشت، من الدّاخل، يوميّات متقلبّة، حيث التّاريخ لا يملّ من تكرار نفسه، وبالطّرق نفسها: بالنّار والدّم. عدّة سفري كانت جد بسيطة: حقيبة ظهر صغيرة، وضعت فيها بعض الملابس الضروريّة، كاميرا رقميّة، دفتر ملاحظات، خرائط حديثة للطّرقات ومواقع محطات البنزين، وقواميس جيب للمحادثة السّريعة بلغات الدّول التي زرتها، والتي وجدت لاحقا أنّها تشترك مع بعضها بعض في كثير من المصطلحات. كلمة «دوبردان (doberdan) «مثلا تعني «صباح الخير أو مرحبا»، تُقال في

الصّبح وبعد الظّهر، في كل دول يوغسلافيا سابقا، وتصير «دوبردين» بالأوكرانية، و«لاخكو نوتش (lahkonoč) «تعني «ليلة سعيدة» في كل بقاع الصّقالبة، فأصل اللّغات السُّلافية واحد، ترجع كلها إلى المنشأ الهندو- أوربي، واللّغة تمثل عنصرا محوريًا في المكوّن الهوياتي لكل واحدة من الدّول التي شملتها الرّحلة، الدّفاع عنها هو دفاع عن الأرض والتاريخ والحقّ في الاستمرار.

وفي ما يتصل بالعدة المعرفية له التي تسلح بها ليقوم برحلته في أرض الصقالبة، يقول الخطيبي: "عدّتي المعنويّة كانت أثقل من الماديّة قليلا، خصوصا القراءات التي قمت بها، قبل وأثناء وبعد الرّحلة، لأهم كتّاب البلقان وأوكرانيا، المترجمين إلى الفرنسية، مع الاطلاع على بعض ما كتبه فرنسيون وعرب عن منطقة السّلاف. وكان لا بدّ لي من عودة إلى رسالة ابن فضلان (كتبها عام 921)، وما ذكره الرّحالة المقدسي في كتابه «أن المسلمين كانوا يجلبون كثيرا من السلع من جنوبي روسيا والبلاد الأوربية الشمالية، عد منها الجلود والفراء والشمع والقلانس والعسل والسيوف، وقال أنهم كانوا يستجلبون الرقيق من الصّقالبة. والصّقالبة في عرفهم كانت تشمل السّلافيين والجرمان وبعض سكان أوروبا.«

والواقع أن الخطيبي يجيب في كتاب يومياته هذا عن سؤالنا الآنف حول وظيفة الرحالة الجديد، وهنا يقول: "رغم ما يفصل بلاد الصّقالبة عن بلاد العرب من اختلافات ثقافيّة، فإن ميزات مشتركة تجمع بينهما،

وهو ما لاحظته مع تقدمي في الرّحلة، والتي حاولت أن أختصرها في هذا الكتاب، كما أني اكتشفت، بعد ثلاثة أسابيع من الترحال، أن السّفر لا يُقاس فقط بالمسافات، وإنما أيضًا بالحالات النفسيّة التي يستشعرها الفرد، والتي تختلف بالانتقال من مكان لآخر، سواء كان قريبًا أو بعيدًا، فالسّفر الأكبر ليس سفرًا في الجغرافيا، بل هو سفر يعيدنا إلى ذواتنا. «نحن نسافر لتغيير الأفكار، لا لتغيير المكان»، هكذا كتب الفيلسوف الفرنسي إيبوليت تاين.

في "جنائن الشّرق الملتهبة" يخطو الرحالة المعاصر عبر ليوبليانا، غراد، زغرب، سراييفو، سربرنيتسا، بلغراد، كييف وينقل صورا وانطباعات وملاحظات التقطها بالعين والفكر والحواس معا، وهو يكتب بلغة رائقة، ويتصف وصفه وملاحظاته بالدقة والذكاء، وتحمل لغته ملامح من ميول الرحالة القدماء، لكنها أبدا تظل أمينة لانفعالات اللحظة وتحاول أن تعيد صياغة الأسئلة بوحي من التوق إلى استكشاف عوالم البشر في امكنتهم، وتتبع الأحوال والمصائر الإنسانية من جوانب ظليلة وبعيدة عن المسلم به من الأشياء بما يضيف إلى معارفنا وإلى الجمال الأدبي.

وقد حاز على جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة المعاصرة في دورتها الحادية عشرة عن جدارة واستحقاق.

لجنة التحكيم

من البلقان.. إلى الميدان

وحدها الصّدفة قادتني إلى بلاد الصّقالبة.

من بحيرات سلوفينيا إلى سهول كرواتيا، ومن أزقة البوسنة والهرسك العتيقة إلى ساحات صربيا، تجوّلت بالسّيارة برًا في أرض الصّقالبة (المسمَّوْن بالسُّلاف)، وعبرت الحدود بحثا عن الملامح الحقيقية لدول تجمع بينها الجغرافيا، وتفرّقها الصّدامات الدّينيّة والإثنيّة، ثم طرت إلى أوكرانيا، أيام ثورة الميدان، وعشت، من الدّاخل، يوميّات متقلبّة، حيث التّاريخ لا يملّ من تكرار نفسه، وبالطّرق نفسها: بالنّار والدّم.

عدّة سفري كانت جد بسيطة: حقيبة ظهر صغيرة، وضعت فيها بعض الملابس الضروريّة، كاميرا رقميّة، دفتر ملاحظات، خرائط حديثة للطّرقات ومواقع محطات البنزين، وقواميس جيب للمحادثة السّريعة بلغات الدّول التي زرتها، والتي وجدت لاحقا أنّها تشترك مع بعضها بعضا في كثير من المصطلحات. كلمة «دوبردان» (dober dan) مثلا تعني

«صباح الخير أو مرحبا»، تُقال في الصّبح و بعد الظّهر، في كل دول يوغسلافيا سابقا، وتصير «دوبردين» بالأوكرانية، و«لاخكو نوتش» (lahko noč) تعني «ليلة سعيدة» في كل بقاع الصّقالبة، فأصل اللّغات السُّلافية واحد، ترجع كلها إلى المنشأ الهندو- أوربي، واللّغة تمثل عنصرا محوريًا في المكوّن الهوياتي لكل واحدة من الدّول التي شملتها الرّحلة، الدّفاع عنها هو دفاع عن الأرض والتاريخ والحقّ في الاستمرار.

أما عدّتي المعنويّة فكانت أثقل من الماديّة قليلا، خصوصا القراءات التي قمت بها، قبل الرّحلة وأثناءها وبعدها، لأهم كتّاب البلقان وأوكرانيا، المترجمين إلى الفرنسية، مع الاطلاع على بعض ما كتبه فرنسيون وعرب عن منطقة السّلاف. وكان لا بدّ لي من عودة إلى رسالة ابن فضلان (كتبها عام 921)، وما ذكره الرّحالة المقدسي في كتابه «أن المسلمين كانوا يجلبون كثيرا من السلع من جنوبي روسيا والبلاد الأوروبية الشمالية، عد منها الجلود والفراء والشمع والقلانس والعسل والسيوف، وقال إنهم كانوا يستجلبون الرقيق من الصّقالبة. والصّقالبة في عرفهم كانت تشمل السّلافيين والجرمان وبعض سكان أوروبا».[1]

منذ بداية القرن العشرين، لم تعرف أرض الصّقالبة (شرقي وجنوب شرقي أوروبا) معنى الطّمأنينة، وعاشت سلسلة من الصّراعات الدّاميّة؛

(1) رسالة ابن فضلان، في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، سنة 309هـ - 921م.

بدءا من الحروب البلقانية (1912-1913)، ثم الحربين العالميتين، الأولى والثانية، التي جُنّد فيها عرب أيضا، وأخيرًا النزاعات والانشقاقات والمناوشات المسلّحة التي تلت سقوط يوغسلافيا، بداية التسعينات من القرن الماضي. وتتقاطع بلاد الصّقالبة مع بلاد العرب تاريخيًا في خضوعها للدّولة العثمانيّة، التي وصلت إلى المنطقة نفسها، مع نهاية القرن الرابع عشر، عقب معركة كوسوفو(قوصوة) الشهيرة (1389)، التي واجه فيها العثمانيون تحالف أمراء البلقان المسيحيين (أمير الصرب لازار هيربيليانوفيتش، ملك البوسنة ستيفان تورتكو الأول وأمير ألبانيا غريجي الثاني بالشا)، والتي توسعت أيضا في شبه جزيرة القرم، جنوبي أوكرانيا، وما يزال الأثر العثماني ظاهرًا إلى غاية اليوم في المنطقة كلّها، نجده مثلا في بعض مصطلحات اللّغة، أسماء شوارع وحارات، في الطّبخ والملبس، وحتى على التلفزيون، فالمسلسلات التركيّة لم تسلب فقط عقل المشاهد العربي بل أيضا البلقاني، دونما أن ننسى المكوّن الدّيني الإسلامي الذي ترسّخ مع وصول العثمانيين، وما يزال مستمرا.

رغم ما يفصل بلاد الصّقالبة عن بلاد العرب من اختلافات ثقافيّة، فإن ميزات مشتركة تجمع بينهما، وهو ما لاحظته مع تقدمي في الرّحلة، والتي حاولت أن أختصرها في هذا الكتاب، كما أني اكتشفت، بعد ثلاثة أسابيع من الترحال، أن السّفر لا يُقاس فقط بالمسافات، وإنما أيضًا بالحالات النفسيّة التي يستشعرها الفرد، والتي تختلف بالانتقال من مكان

إلى آخر، سواء كان قريبًا أو بعيدًا، فالسّفر الأكبر ليس سفرًا في الجغرافيا، بل هو سفر يعيدنا إلى ذواتنا. «نحن نسافر لتغيير الأفكار، لا لتغيير المكان»، هكذا كتب الفيلسوف الفرنسي إيبوليت تاين.

ليوبليانا

تمارين على محاكاة
الصّخب الصّامت

في الطائرة من إسطنبول إلى ليوبليانا، جلست على يميني شابة في حدود الثلاثين، خمريّة البشرة، ذات عينين بنيّتين صغيرتين وعميقتين، بشعر أسود طويل وفستان أخضر قصير.. مباشرة بعد الإقلاع، غرقت في مطالعة كتاب «مرايا حياة» لجان دانيال، وفكّت هي حزام الأمان، مالت بمقعدها إلى الخلف قليلا وغفت، ولم تستيقظ سوى حوالي نصف السّاعة قبل الوصول. كانت تخفي بين يديها جواز سفر أخضر مُزرق، لم أتمكن من قراءة اسم البلد المدوّن عليه. أخذت تمدّ رأسها تجاهي لتطلّ من كوّة الطائرة نحو الخارج وتلتقط صورا سريعة بهاتفها الذّكي، قبل أن تبادر بسؤالي بالإنجليزية وبصوت خافت: «من أي بلد أنت؟». «من الجزائر». «وأنتِ؟» سألت بدوري. «كازاخستان» أجابت. «كازاخستان!» ردّدت بداخلي. كانت تلك المرّة الأولى التي أصادف فيها أحدا من بلد كان يبدو لي

جد بعيد، بالكاد أسمع عنه. لكن الشابة الأُورَاسية الملامح لم تتعجب من هويتي، وبدل أن تسألني عن الجزائر أو عن سبب ذهابي إلى سلوفينيا، راحت تحدثني عن بلدها وعن العاصمة أستانا وعن كونها وجهة سياحيّة. «أنت مقيمة في سلوفينيا؟» سألتها مجددًا تحت إلحاح الفضول. «كلا. ذاهبة في سياحة فقط» هكذا اختصرت إجابتها وأنهت الدردشة بإعادة ربط حزام الأمان استعدادا للهبوط. في المطار، وأمام نقطة التفتيش وقفت أمامي تنتظر دورها، رفقة أربع شابات أخريات، في مثل سنّها تقريبا، يحملن جوازات سفر كازاخية، مما أثار في نفسي تساؤلا عن فرضية كونهن جزءا من الاستغلال الذي تتعرض له، سنويا، نساء قادمات من جمهوريات سوفيتية سابقة، للترويج السياحي في أوروبا، بحسب ما تذكره تقارير صحافية.. كانت الأسئلة الفضولية تتوالد في ذهني وأنا أنتظر دوري في الطابور، وظلّت تراودني وأنا أقف أمام الشرطية السلوفينية الصّامتة، التي ختمت جواز سفري دون أن تنظر في وجهي.. وبعد الخروج من مطار«بارنيك» الصغير، ذابت التساؤلات مانحة المكان لرغبة ملحّة في اكتشاف ملامح بلد لا يبعد - جغرافيا- كثيرا عن الضّفة الجنوبيّة من المتوسط، و بلاد العرب، لكنه مختلف ثقافيًا وسياسيًا، يسميه البعض سويسرا الثانية، ويرى فيه آخرون ملجأ مريحا للهرب من ضغط الضفة الغربية من القارة العجوز.

اتجهت من بارنيك إلى العاصمة ليوبليانا، التي تشتق اسمها من الكلمة السّلافية: ليوبا، بمعنى «المحبوبة»، على طريق سيار يمتد حوالي 25 كلم، يطوّقه اللونان الأخضر والبني الدّاكن لجبال يتحوّل لونها شتاء إلى الأبيض، فسلوفينيا بلد الرياضات الشتوية بامتياز، تشتهر بمركزها الرياضي في جبل «كرفافيتس»، الذي يتصل بسلسلة جبال الألب، وقمتها الأعلى: تريغلاو (بعلو يتجاوز 2800 متر) وبخصوبة أرضها ثقافيا، التي مرّت عليها رياح رومانية وجرمانية وتوقفت عندها الحملات العثمانيّة.

لو نظرنا إلى خارطة سلوفينيا، ستبدو ليوبليانا بشكل شبه دائري، متموقعة وسط البلد. فهي محور لقاء وافتراق الطرق المؤدية إلى دول الجوار: إيطاليا، كرواتيا، النمسا، وهنغاريا، ومن الداخل تلتف المدينة حول قلعتها التاريخية: «Ljubljanski grad»، والتي نصل إليها بعد قطع نهر ليوبليانيتسا، الذي يفصل بين شرق المدينة وغربها، ثم شارع غلايسكا بلانوتا، ويمكن بلوغ القلعة مشيا أو بسيارة، وغالبية الزّوار يفضلون الصعود إليها مشيا عبر زقاق ضيق ملتف، للاستمتاع بمنظر المدينة من الأعلى، التي تذكرنا في هدوئها وكبريائها بفيينا وبرلين.

«القلعة» هي بطاقة هوية المدن الأوروبيّة عموما، ومدينة بلا قلعة تعتبر مدينة «يتيمة» أو مغضوبا عليها، وليوبليانا تتزيّن لزوارها بتزيين قلعتها، مقر إقامة دوقية كارينثيا قديما، والواقعة على ربوة، تسرق انتباه السائح، وتلحّ عليه بزيارتها، مع أنها من الدّاخل تبدو جد عاديّة، بباحة

واسعة، وأعمدة رومانية وفسيفساء معمارية متنوعة، فقد عرفت كثيرا من الرتوش، والتغييرات على مرّ وجودها. بنيت بدايات القرن الثّاني عشر، وتحوّلت في القرن الثّامن عشر إلى مستشفى عسكري ثم إلى سجن، ولم تستعد هويتها الأصليّة سوى بعد الحرب العالميّة الثانيّة، لتتخذ لنفسها بعدا سياحيًا وثقافيًا بداية التسعينات، بعد استقلال سلوفينيا عن يوغسلافيا (1991)، حيث صارت تحتضن نشاطات فنية وأخرى ترفيهية. لحظة وصولنا إليها كانت باحة القلعة تتهيأ لحفل غنائي ساهر، والطّرف الأيمن منها قد تحوّل إلى مقهى يعجّ بالزبائن، وفي الطابق العلوي فوج سيّاح صينيين، بعضهم يلتقط صورا للمدينة، والبعض الآخر يستغل الفرصة للاستلقاء والاستراحة وتناول ساندويتشات تحت شمس المدينة الدّافئة.

عاصمة سلوفينيا هي مدينة الهدوء والشّرب في آن. ففي ساحة بريشارن، جلست قليلا أسفل تمثال الشاعر فرانس بريشارن (1800-1849)، مؤلف النّشيد الوطني، ونظرت من حولي، ولم أر سوى أمكنة مهيأة للاستهلاك: مقاه ومطاعم وحانات ومحلات أكل سريع، ولافتات إشهارية كبيرة لشركة المشروبات الكحوليّة المحليّة، كما لو أنّ عراقة المكان اضمحلت أمام الغريزة الإنسانية.. فرانس بريشارن، الذي صار يوم وفاته عيدا للثقافة السلوفينية، وإجازة مدفوعة الأجر (8 فبراير) ينتصب وحيدا، يرثي حاله مستذكرا نصوصه القديمة وحبيبته جوليا بريميتش، التي ألهمته

كتابه الشعري: «تاج السونيته»، مطلاً من اليمين على الكنيسة الفرنشيسكية، ذات النّمط الباروكي، ومن اليسار على الجسور الثلاثة (ترومستوي)، التي تقطع ليوبليانيتسا، والتي أنجزها مواطنه المعماري جوج بليتشنيك (1872-1957)، المخصصّة للمشاة فقط، والمزدحمة في موسم الصّيف بباعة متجوّلين قادمين خصوصا من دول أميركا اللاتينية. «هنا كثير من الشباب المهاجر القادم من كولومبيا وفنزويلا والبيرو» تخبرني آنيلا، فارهة القامة، ببشرة بيضاء محمرّة وشعر أسود قصير، نادلة في مقهى فضّل أن يُزيّن طاولته بأعلام كوبا وصور تشي غيفارا. لم تكن عيناي متعوّدتين على مهاجرين من أميركا اللاتينية، خصوصا في بلد مثل سلوفينيا، لا تربطه كثير من النقاط المشتركة معها. «كثير من السلوفينيين يفضلون قضاء عطلهم في كولومبيا وكوبا ودول مجاورة لهما، مستفيدين من العروض والأسعار الزهيدة التي تقدمها.. أحيانا يعودون من هناك بزوجات» قال صديقي وليد الجزائري ليخفف من حدَّة تساؤلاتي.

على أرصفة شوارع ليوبليانا، حيث يتجلى للنّاظر النمط المعماري الباروكي (نلتمسه مثلا في كاتدرائية القديس نيكولا، بالقرب من السّوق المركزيّة) صوت خافت يصعد من تحت البلاط، يخاطب المارّة، يوشوش في آذانهم، ويحثّهم على الإنصات إلى أعماقهم. يَجرُّهم بهدوء إلى خشوع المدينة، وخجلها الإنساني في مصافحة الزّائر، وتسترها الرزين خلف صمتها

الصّاخب. على أرصفتها، كان لا بد لي أن أمارس عادتي الجزائرية: التسكّع ومراودة محلات بيع الكتب القديمة. في الجزائر العاصمة، كنت أجد لذّة في التجوّل صبيحة كل خميس في ساحة البريد المركزي، التنقل بين طاولات ومعروضات باعة الكتب، لتصفح مخطوطات ومجلات أجنبية قديمة، أقضي ساعات في تقليب صفحاتها، ولا أقتني في النهاية إلا القليل منها، بسبب شحّ الميزانيّة الشخصيّة.. إنها ممارسة تستهوي الكثيرين مثلي وتثير غضب الباعة، الذين صاروا يتحرجون من كثرة الروّاد وقلة المشترين. في ليوبليانا وجدت ضالتي في محل كتب عتيق، يقع على ضفة ليوبليانيتسا، تشرف عليه سيدة عجوز، ملامح وجهها تشي أنها تُجاور السّبعين. بمجرد أن تخطيت عتبة المحل حتى رمقتني بنظرة شاملة، من الأسفل إلى الأعلى، دون أن تردَّ على تحيَّتي: دوبردان!.

كان المحل مكتظا برفوف الكتب القديمة، المصنّفة بحسب نوعها: أدب، فنون، علوم اجتماعية، علم الفلك.. إلخ، كانت لافتات رفوف الكتب مكتوبة باللّغتين الإنجليزيّة والسلوفينيّة، أما الكتب فكانت كلها بالسلوفينية، و أنا لا أفقه شيئا في لغة سلوفاي جيجك سوى بعض المفردات والجمل القصيرة التي تعلمتها من قاموس لغوي فرنسي – سلوفيني. توجّهت مباشرة صوب زاوية الأدب، وهناك بدأت أقلب الكتب بالنظر إلى اسم المؤلف فقط، فهو الثابت دائما، الذي يمكن أن يمنحنا مفتاحا لفهم عنوان الكتاب، ووقعت عيناي على أسماء: إيميل

زولا، كافكا، خوليو كوتاثر، آرنست همينغواي.. ورشيد ميموني، نعم وجدت كاتبا جزائريا مندسا بين صفوف كتّاب عالميين، مترجما إلى السلوفينية. أمسكت الكتاب، فهمت من محاولة قراءة العنوان أنها رواية «تومبيزا»، رواية ميموني الأهم، رفقة رواية «النهر المحوّل». حاولت أن أتصفّح الكتاب من الداخل، مع علمي المسبق أني لن أفهم شيئا، لكن فرحة التقاء كتاب جزائري في سلوفينيا كانت تلح عليّ لتصفحه، وتحفزني للوقوف أطول مدّة أمام الرّف، كانت لحظة حميمة أشبه بلقاء صديق أو حبيب بعد غياب طويل، شعرت بافتخار ممزوج بكبت لأني لا أستطيع أن أكلّم صاحبة المحل عن الكتاب، لن أستطيع أن أخبرها بما أعرفه عن رشيد ميموني، على أنه كاتب كبير، وأن هناك دارا للثقافة تحمل اسمه، وأنه كاتب مغاربي مقروء في فرنسا، ويستحق أن يوضع على واجهة المحل، وليس في ظلمة الرفوف، في زاوية لا يقصدها سوى عشّاق الأدب. تبخّرت الرغبة في الكلام من رأسي و أنا أخرج من المحل، وأنظر إلى صاحبته، جالسة أمام صندوق الحسابات، وهي بصدد تجليد كتاب قديم.. خرجت، بخطى متثاقلة، بحثا عن مصادفات أخرى، ومشاهدات جديدة في مدينة منفتحة على الاحتمالات.

انعطفت يمينا، ومشيت متبعا سهما يشير إلى جهة مركز الإرشاد السياحي، الواقع على زاوية شارع «ستريتار»، هناك دخلت لطلب خارطة

شبكة طرقات المدينة أولا، وللاستفادة من خدمة الإنترنت المجانية التي يوفرها في الدّاخل ثانيا. لما خرجت من المركز نفسه، وبعدما خطوت بضع خطوات يسارا، لفتت انتباهي لافتة زجاجية، على الجهة المقابلة من الشارع، حيث كانت تصطف محلات تجارية، كُتب عليها بالأحمر والأسود: «بيت تروبار الأدبي». كانت مؤسسة ثقافية، بمدخل مظلم قليلا، يشبه مداخل العمارات السكنيّة القديمة، وقاعات نشاطات أدبيّة وفنيّة صغيرة مضاءة جيدًا، زُيّنت جدرانها بلوحات ومنحوتات، بشكل أضفى على المكان كثيرا من الدفء والحميمية. لمّا وصلت بيت تروبار كان الوقت ظهرا، وغالبية النشاطات تقام عادة مساء، وكانت لي دردشة سريعة مع موظفة الاستقبال الأربعينيّة، وفرصة للاطلاع على منشور يُعرّف بنشاطات المؤسسة المتنوعة والمنفتحة على الثّقافات الأجنبيّة، وقراءة جانب من سيرة الرّجل الذي تحمل المؤسسة اسمه: بريموش تروبار(1508 1586)، رجل دين ونحوي وواضع قواعد اللّغة السلوفينيّة، واللّغة تعتبر أهم عنصر من عناصر هوية البلد. ترك تروبار خلفه 25 كتابا وترجمة للإنجيل إلى السلوفينية، ومثل فرانس يعتبر يوم ميلاده (8 جوان) عيدا وطنيا، وقطعة واحد أورو تحمل صورته، تلك هي خصلة السلوفينيين؛ يحتفون بمثقفيهم و أدبائهم، بينما نحتفي في بلاد العرب أكثر بذكرى الرؤساء والزعماء والديكتاتوريين، ونرصّع مداخل المدارس والمطارات والشّوارع بأسمائهم، نحتفي بهم في الحياة وبعد الممات، ونجعل منهم، رغم أنف

التّاريخ، أيقونات تنغص على المواطن العربي البسيط يومياته، وتتبعه في نومه ويقظته.

على طرف شارع ستريتار دائما، وجدت نبع ماء بارد ومنعش، توجهت إليه قصد ملء قنينة كانت في حقيبتي وتبليل وجهي قليلا، ووقعت عيناي فجأة على مشهد مجموعة من السوّاح البيض، لم أستطع تحديد جنسيتهم، تعبر الشوارع، وبينهم مراهقة لا تبدو أنها قد بلغت سنّ النّضج، بوجه طفولي ضاحك، ترتدي شورت جينز وقميصا أزرق فضفاضا، وبطن منتفخ كما لو أنها في الشّهر السّادس أوالسّابع من الحمل. كان مشهدا غريبا عليّ: مراهقة حامل! شعرت برغبة في الاقتراب منها والتّحدث إليها وسؤالها كيف تشعر وهي تصير أمّا قبل سنّ الثامنة عشرة، وهل هي سعيدة بما تحمل في بطنها. هو نوع من الفضول راودني حينها، وتجاهلته سريعا، وواصلت تسكّعي في شوارع المدينة النّظيفة والهادئة ، قبل أن أدخل مطعما صينيا للغداء. لكني أقرّ أن صورة المراهقة الحامل وهي تضحك ملء شدقيها، وتحمل كاميرا رقمية في يدها اليسرى، ظلّت راسخة في ذهني أشهرا طويلة.

العاصمة السلوفينية، حاضنة فلاديمير بارتول، صاحب الرواية الشهيرة «آلموت»، تختزن في جوفها كثيرًا من المفاجآت السّارة، ففي حيّ ميتيلكوفا، بالقرب من محطة النّقل البري، التقيت باستيان (22سنة)، الذي تقدم نحوي ليسلمني بطاقة دعوة لحضور حفلة راب، كانت ستقام الليلة

ذاتها، في المكان نفسه، يشارك فيها رفقة شباب هاو من مختلف أحياء المدينة. ودون مقدمات انخرطت في دردشة مع باستيان، الذي كان يرتدي قميص فريق شيكاغو بولس الأميركي الأحمر، وقبعة صفراء، حيث تحدثنا عن الراب وعن فرقته الفتيّة، كما حدثني عن ميتيلكوفا الذي كان حيًا عسكريًا قبل أن يتحوّل بعد استقلال سلوفينيا، وحرب الأيام العشرة، إلى مركز ثقافة الأندرغراوند، والموسيقى البديلة، ومقرًا لعدد من الجمعيات الثقافيّة، ويُصنف بداية من 2005 ضمن التّراث الوطني، تزيّنه رسومات الغرافيتي من كل جانب، بشكل يمنح الزّائر انطباعا أنه في معرض فنّي مفتوح على الهواء الطلق، يقصده يوميًا فضوليون وشباب من مختلف الطبوع الفنيّة، كنت أشاهدهم في حركة ذهاب وإياب مستمرة، بمظهر يتناسق مع المظهر العام للحيّ، حيث تتقاطع العبثية والفوضويّة، بشكل أعاد إلى ذاكرتي ملامح بعض حارات برلين الشرقيّة.

في المساء، عدت إلى المكان المحدّد لحفل الراب، وكان الحيّ يعجّ بحركة جد كثيفة أكثر مما كان عليه في النهار، بعدما فتحت الحانات أبوابها، وغالبية الوجوه التي صادفتها كانت في تفاعل مع الجوّ الفنّي العام: مغنون وراقصون وسوّاح جميعهم في ركن واحد من العاصمة السلوفينية، ورأيت باستيان من بعيد، بصدر عار، على المنصة وهو يرقص بريك دانس، مع رفيق له، على أنغام موسيقى الديجي الصّاخبة. حاولت أن أقترب من المنصة و أحييه، لكن كثافة الجمهور وزحمة المكان منعاني، وانتظرت حتى نهاية

الحفل، بعد منتصف الليل بقليل، لأصافحه وأهنئه على عرضه الحسن، رقصًا وغناء، ثم انصرفت.

صبيحة أحد روتيني، بعدما شربت فنجان قهوة على مضض، على شرفة مقهى كان يصعد منه صوت المغنية تينكارا كوفاتش، نجمة البلد الأولى وسوبر ستار الأجيال الشابة، فكرت في زيارة واحد من أهم معالم البلد الطبيعية والسياحيّة: بحيرة «بليد»، التي تنسب إلى المدينة التي توجد فيها. في جمهورية البحيرات (بوخين، سركنيتسا وغيرها) تعتبر «بليد» قبلة لا غنى عنها، محج السكان والزوار على حد سواء، ولا تتم زيارة سلوفينيا من دون السباحة في مائها.

توجهت إلى مقصدي بالسيارة، على طريق سيار، باتجاه مدينة كران، متبعا اللّوحات الإرشادية، و مررت ببلدات ستانجيتش، شانشور، بريجي، رادوفيتس، ولم تقع عيناي، على امتداد ساعة من الزمن، سوى على لوحات خضراء شاسعة، من مزارع وغابات كثيفة ممتدّة، تكثر فيها أشجار الراتنج الشوحي. فما نسبته 60 ٪ من إجمالي مساحة البلد هي فقط غابات، وقطع شجرة من دون إذن يعتبر جنحة، لا يتسامح معها المُشرّع، تمنيت لو أن دولا عربية اقتبست من سلوفينيا القانون نفسه وفرضته على سماسرة المساحات

المزروعة، الذين حولوا كثيرا من المدن العربية إلى مساحات شاسعة من الخرسانة، يندر فيها اللون الأخضر.

لما وصلت بليد، كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة. على مدخل المدينة، أمام حاجز شرطة كان يشرف على تنظيم المرور، بحكم أن الويكاند يعرف إقبالا كثيفا على البحيرة، صادفتني لافتات كثير من الفنادق ذات الثلاثة وأربعة نجوم، والمراقد زهيدة الثمن، والمطاعم والمقاهي، في منطقة تعرف ذروتها السياحيّة في فصلي الرّبيع والصّيف، لتدخل في سبات حتمي وعزوف من السّواح في فصلي الخريف والشتاء. بعدما ركنت السيّارة أمام مركز تجاري، توجّهت إلى ضفاف البحيرة، حيث كان بعض السوّاح قد بدأوا في التّحلّق في مجموعات، والنزول إلى الماء، جماعة جماعة، مطمئنين على أغراضهم الشخصيّة، الموضوعة على الضفة، غير قلقين من إمكانية سرقة حاجياتهم، كما يحدث أحيانا في شواطئ الجزائر، منخرطين فقط في الاستمتاع بوقتهم في بلد يشتهر بكونه واحدا من أكثر دول العالم أمنا. بالمقابل، فضّل بعض الزوّار الآخرين المشي فقط حول البحيرة، مرفقين بكلابهم أو أولادهم وأحيانا أخرى بخلانهم أو أفراد عائلاتهم، بينما قررت أنا ركوب واحد من القوارب الخشبية الصغيرة، أو ما يمسى محليا «بليتنا»، وزيارة الكنيسة النيو – قوطية التاريخية، التي تتوسط البحيرة، على الجزيرة الوحيدة في البلد.

ركبت القارب، بعد دفع ستة أورو، وانتظرت حوالي عشر دقائق حتى يمتلئ ويكتمل عدد الركاب، والذين تجاوز عددهم العشرة، كانوا كلهم سواحا روسا. وسط الماء، حاول صاحب القارب الثلاثيني أن يلعب دور المرشد السياحي ليعرّف السواح الروس بالمنطقة، مخاطبا إياهم بالإنجليزية، بالقول إن البلدة كانت الوجهة الصيفية لعائلة كاراجوج الصربية، التي ثارت ضد العثمانيين بداية القرن التاسع عشر، وحكمت منطقة يوغسلافيا سابقا، ثم أشار بيده إلى بناية ضخمة، مكررا على أسماعنا مرتين أنها كانت بيتا من بيوت الزعيم الأسبق تيتو الصيفية، بناه عام 1947. لاحقا لما زرت البناية نفسها وجدت أنها قد تحوّلت إلى فندق ومطعم وتزيّنت بأعلام سلوفينيا و دول الاتحاد الأوروبي، وقطعت صلتها بالماضي اليوغسلافي.

على ضفة الجزيرة التي تتوسط بليد، أخبرنا صاحب القارب بأن لدينا ربع ساعة فقط لزيارة المكان ثم العودة إلى القارب. ظننت في البدء أنها مدّة غير كافية لاستوفاء المكان حقه، لكن تبيّنا بعدها العكس. أول ما يواجه الزائر على الجزيرة هو درج طويل يصعد إلى الأعلى. تقول الأسطورة إن العريس كان يحمل، في الماضي، عروسه بين يديه على طول الدّرج الكبير، ويصعد بها إلى الكنيسة في الأعلى، ويدقان معا جرسها إعلانا عن ارتباطهما الأبدي. أما اليوم، فالجميع تخلّى عن تلك العادة، ولا أحد صار يزور الكنيسة، الخالية من المتعبّدين غالبية الوقت، بعدما تحوّلت مع محيطها العام

إلى نقطة جذب سيّاحي لا ديني، لالتقاط الصور وتأمّل جمال المكان الجنائني الذي يلفها.

بعد الرّحلة القصيرة إلى الجزيرة، والعودة إلى ضفاف البحيرة، جلست في مقهى مجاور، واقترح عليّ النادل من تلقاء نفسه، بعدما سلّمني قائمة الطعام، أن أجرب «كرامشنيتا» وهي حلوى المنطقة الشهيرة، تشبه قليلا حلوى «ميل فاي» الفرنسية. اعتقدت أن النادل يحاول النصب عليّ، وهي ردّة فعل طبيعية من مواطن عربي تعوّد أن يجد نفسه ضحية للاحتيال في بعض المصايف، لكن الحلوى كانت فعلا لذيذة، وثمنها لا يتجاوز واحد أورو ونصف أورو، وما كاد طعمها يذوب في لساني حتى توجهت للسباحة، منقادا بالحكايات الشعبية التي تقول إن من يسبح في ماء بليد لا يبدو أن يعود إليه ثانية، خرافة تشبه ما يُروى عن نبع «عين الفوارة» في سطيف، شرقي الجزائر، التي تقول إن من يشرب منه لا بد أن يعود إليه مرّة أخرى.

على خلاف ما نراه في شواطئ مدن أوروبية أخرى، تبدو «الحشمة» عنصرا مهمّا في سلوكيّات السلوفينيين والسلوفينيات، فالنسوة يسترن جسدهن ما أمكن قبل النزول إلى الماء، كما لا نجد هناك شواطئ لسباحة العراة، فالبلد يصرّ على التمسّك بالتعاليم الكاثوليكيّة الموروثة عن الأجداد، وقبل وصولي إلى ليوبليانا بأشهر كان قد أجري استطلاع رأي

حول زواج المثليين وجاءت غالبية آراء المواطنين معارضة للفكرة، فسلوفينيا بلد محافظ من الدّاخل، رغم ما قد يلاحظه الزّائر من استثناءات.

بعد حوالي السّاعة من السّباحة في مياه بليد الباردة، فكّرت في تناول وجبة ساخنة، وارتشاف فنجان قهوة تركيّة، ثمّ التّوجه إلى بلدة غراد، لزيارة واحد من قصور الزعيم تيتو، وفتح فصل جديد من الحكايات السّلافية.

غراد

الزّعيم يقرأ شعرًا

من غراد الهادئة إلى بلغراد، العاصمة الصربية المضطربة، مسافة 700 كلم، وتاريخ مشترك يمتد على طول نصف قرن، وزعيم واحد، بطل ونظير بطل يُدعى تيتو(1892-1980). بين المدينة الأولى (بمعنى قلعة) والثانية (المدينة البيضاء) عاش الرّجل سنوات الصّعود والسّقوط، من مناضل شيوعي عادي إلى رئيس واحدة من أكبر دول العالم الثالث، ليتحول في النهاية إلى مجرد فنتازم سياسي ورمز للتناقضات. في المدينة الأولى خطَّط، ونظَّر، واستقبل أهم قادة العالم الثالث (عرب، أفارقة وآسيويون)، وفي المدينة الثانية دُفن ودُفنت معه بعض أسرار نشأة بلاد اليوغسلاف وتفتتها.

في قصر غراد زُرت جزءا من حياته الحميمة، خصوصاً مكتبته الشخصية. يذكر المؤرخون أن زعيم يوغسلافيا كان كلما سمع عن كتاب أو أحبَّ كاتباً أمر بترجمته إلى اللّغة الصربو- الكرواتية، لغته الأم، ولغة البلقان سابقا.

على مدخل القصر، نزعت حذائي ولبست جوربا بلاستيكيا استجابة للتعليمات، وطفت على مخيلتي أسئلة كثيرة، وعلامات استفهام عن طبيعة مقتنيات تيتو الشخصية، مظاهر الترف والبذخ في حياة زعيم عاش ثلاثة عقود كاملة بلا معارضة فعليّة، وبملايين من الأتباع والمريدين. في البداية، خيّل إليّ أنني سأدخل بيتاً من ذهب وفضّة، يشبه بيوت واحد من الديكتاتوريين السابقين، في أميركا اللاتينيّة، أو في بعض دول الرّبيع العربي. بيتاً من حرير وجواهر وأحجار كريمة. ولكن، بمجرد دخول البهو تغيّرت الانطباعات الذاتيّة، وتلاشت الصّور المسبقة والكليشيهات. قصر أشهر زعماء العالم الثالث، خصم ستالين، وعَرّاب حركة عدم الانحياز (رفقة نيهرو، وجمال عبدالناصر) لم يكن مكوَّنًا سوى من طابقين: أرضي خاص بالنشاطات الرسميّة، وعلوي شخصي، يطغى عليه البعد المعماري السّلافي، غير المبالغ في تزيين الجدران وفرش الأرضية، بقاعات فسيحة، ومطبخ صغير نسبياً، حيث علقت صورة تيتو رفقة ثلاثة أطفال. في كل القاعات كانت تصطفّ لوحات أشهر الفنانين اليوغسلاف، خصوصاً منهم فنانو الموجة الواقعية، مثل إيفانا كوبيلاتشا (1861 - 1926)، وبورتريهات نيكولا ناشكوفيتش. من بين كل اللّوحات التي تزيّن الطّابق الأرضي، لوحة واحدة بعثت نفسي على التساؤل: لوحة بورتريه موليير، المعلّقة على مدخل قاعة الاجتماعات، التي تضم أيضا شاشة حائطية كبيرة لمشاهدة الأفلام والفيديوهات. لوحة وجه موليير، بملامح المتأمل، نصف العابس ونصف المبتسم، وبشعره الكثيف المتدلّي، كانت تعكس علاقة

الرئيس الأوتوقراطي السابق (اسمه الحقيقي جوزيف بروز) بالمسرح والفن والإبداع إجمالاً.

❖ ❖ ❖

في فترة حكم تيتو، بلغ المسرح اليوغسلافي، الخارج لتوّه من جلباب المسرح السوفيتي، ذروته، خصوصاً بعد تشييد مبنى «مسرح يوغسلافيا» الشهير بالعاصمة بلغراد، والذي عرض كلاسيكيات الفن الرابع، بعض أعمال موليير وشكسبير ولوركا وخصوصا أعمال المسرحيين القوميين في البلد. كان مسرحاً موجَّهاً، مسيَّسًا، يصبّ في خدمة الزعيم والنظام الحاكم وقتها. الشوفينية كانت ماركة ثقافية والرقابة على حريّة الإبداع كانت سبباً في إشعال فتيل ما اصطلح على تسميته «ربيع كرواتيا» (1971)، لما قامت مجموعة من الشعراء والكتّاب بصياغة بيان حاد النبرة للتنديد بممارسات بعض السياسيين والمطالبة بحرية التعبير، واعتماد اللغة الكرواتية كلغة رسمية. بيان تبنَّته عامة الشعب الكرواتي، وخرج الآلاف منهم في حركة احتجاجية واسعة، وجدت في مواجهتها رشاشات الشرطة وعصيها.. ضمن هذا المناخ الثقافي المتقلّب، الذي ساد عشرية السبعينات من القرن الماضي، كان تيتو، صاحب الملمح الصلب المتجهّم، يجلس، من حين إلى آخر، في مكتبته الخاصة، بالطابق العلوي من القصر، والتي تتعدى مساحتها 60 متراً مربعاً (يمنع فيها التصوير)، على الجوانب الثلاثة منها رفوف تصطف فيها كتب ومجلدات، وفي الوسط طاولة وكرسي خشبيان،

جلست عليه محاولا تقليد طريقته في الجلوس، فقد حافظ القيّمون على القصر على الديكور القديم، ولم يغيّروا منه شيئا. في البداية، لفتت انتباهي بعض الكتب البيوغرافية الضخمة، مثل بيوغرافيا ماو تسي تونغ، للكاتبة الصينية هان سوين (اسمها الحقيقي شوكوانغو)، صاحبة رواية «كثير من الأشياء الجميلة» (1952)، وإلى جانبها بيوغرافيا أدولف هتلر، من توقيع المؤرخ الألماني وانر مازير، المختص في تاريخ الحركة النازية، وبدا لي من الطبيعي أن يهتم زعيم مثله بسير من سبقه. ووسط سِيَر الزّعماء وكتب السياسة، التي لم تكن مرتبة بشكل موضوعاتي أو بحسب جنسيات الكتّاب، أو وفق حروف أبجدية، وجدت كتاب «يوميات» إيزابيل إيبرهاردت، الكاتبة السويسرية الرحّالة، التي عاشت نهاية القرن التاسع عشر متنقلة بين مدن الصحراء الجزائرية وقراها وواحاتها، وصادفتني رواية «آنا كارنينا» لتولستوي، مما يوحي أن الرئيس أحادي الحزب والتوجُّه كان يقرأ أدباً، وقد عرف شخصيات آنا كارنينا وعشيقها فرونسكي وزوجها أليكسيس، وما دار بينهما. وهل قرأ الرواية واليوميات والبيوغرافيات للمتعة الشخصيّة، أم للاستعانة بها في التخطيط وفي صياغة الخطابات السياسية الحماسية؟ للحظة، تخيّلت أن تيتو، الذي كان يحكم بلداً بحجم قارة، لم يكن لديه الوقت الكافي ليقرأ الشعر، ويخاطب دواخله وعواطفه، لو لم يفاجئني مجلد الأعمال الكاملة للشاعر الشيلي بابلو نيرودا (1904 - 1973) الذي يتوسط رفوف الكتب. الزعيم كان يقرأ – بحسب شهادات مقربين منه – كل ما يقع بين يديه، ويكتب ملاحظات

وتعليقات. ولكن، رغم العدد الهائل من الكتب، لم أصادف اسم كاتب عربي واحد في المكتبة نفسها، رغم العلاقات الجيدة التي كانت تجمع تيتو مع قيادات دول عربيّة.

تذكر كتب التاريخ أن تيتو تزوّج، رسميا، عام 1951، إيفانكا بوديسافليتش (1924-2013)، وكان يكبرها باثنتين وثلاثين سنة. كانت شابة وسيمة، بشعر طويل وذهنية عسكرية خالصة. عملت ممرضة وتدرّجت في سلم الترقيات وصارت ضابطة، ثم سكرتيرته الشخصية، وعشيقته طيلة ستّ سنوات.. علاقة الحبّ والودّ بينهما ذابت بعد عشرين سنة، بسبب مبالغة إيفانكا في مراقبة تحركات زوجها، من جهة، ومزاجية تيتو وتعدُّد علاقاته العاطفية من جهة أخرى.. قصر غراد شهد على خيانات الزعيم، ولفت انتباهي أنه كان يضم خمسة مداخل: مدخل رئيسي، مدخل لكبار شخصيات الدولة، مدخلان خلفيان ومدخل جانبي للعشيقات فقط، منحهن الزعيم باباً لهن وحدهن. وتشير مصادر إلى علاقة حميمة جمعته مع السوبرنو الكرواتية الشهيرة زينكا ميلانفو. ويتحدث أرشيف القصر أن تيتو كان يتحدث عن إيفانكا ومشاكله معها حتى في اجتماعات الوزراء، وبلغت الخلافات إلى درجة اتهامها بالعمل لصالح الاستخبارات السوفيتية، مما تسبب في عزلها عن الحياة السياسيّة كليّة. في الطابق العلوي، على يسار المكتبة، دخلت غرفتها الفسيحة، غرفة نسائية

بامتياز مع ستائر بيضاء طويلة وخلفية تميل إلى اللّون البنفسجي ومرايا كبيرة على الزوايا الأربع، لم تستمتع بها طويلاً، وشغلتها بعدها غريبات لها.

معمار قصر غراد يعود إلى مرحلة فترة النهضة، بُني عام 1510، ومَرَّ عليه قادة الإمبراطورية المجرية – النمساوية، التي حكمت المنطقة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، قبل أن يصل إليه تيتو نهاية الحرب العالمية الثانية. يتميز بمخططه رباعي الشكل، أعمدته الرومانية الطويلة، واجهته التي تقوم على خطّ عمودي وسقفه المزيّن بمنحوتات. في الخارج، تحيط به غابة، تتضمن – بحسب ما قال لي مرشد سياحي – ما لا يقل عن ثمانمائة نوع نباتي مختلف، إضافة إلى ملعب غولف وممرّات للتنزُّه، تمشيت فيها وتخيّلت أنها تصلح لتصوير فيلم رومانسي، ومركز للمؤتمرات، بُني منتصف التسعينات فقط، وشهد مرور كبار رؤساء العالم: بيل كلينتون، جورج بوش، فلاديمير بوتين، وغيرهم.

ما أثار انتباهي في قصر «الزعيم» هي المكتبة، التي تكشف عن روح مبدع، وربما وقَّع تيتو نصوصاً ووريت التراب معه. يكفي أنه كان يجد وقتاً ليقرأ، في انتظار أن يخبرنا رؤساء العرب أيضاً ماذا يقرؤون؟

❖ ❖ ❖

في اليوم الموالي، استيقظت باكرا، بعدما كنت قد أنهيت ليلا قراءة رواية «صيف سلوفيني» للكاتب الفرنسي الشاب كليمون بينيش، والتي

بدت لي رواية غير مقنعة. تركت لمؤلفها رسالة خاصّة على الفايسبوك أخبره فيها برأيي في النّص، وغادرت ليوبليانا، بعد ملء خزّان وقود السيّارة، متجها إلى كرواتيا، مسقط رأس تيتو، مستحضرا في ذهني صورة الشّابة الكازاخية التي التقيتها في الطائرة، ولم أرها مجددا، ومتخيّلا نفسي في زاغرب، التي كانت تلوّح لي بلهفة من الجنوب.

زاغرب

آلهة تتهيأ للرقص

للوهلة الأولى، يبدو إيقاع الحياة في زاغرب مضطرباً وعابساً، وغير منسجم مع سمعة المدينة التاريخية، كما لو أن العاصمة الكرواتية تعيش قلقا مزمنا أو تتهيأ لطارئ ما. غالبية ساحاتها الواسعة تحصّن نفسها بتماثيل بعض القادة العسكريين والسياسيين التاريخيين، غير مبالية كثيرا بالزوار والغرباء، ترد عليهم بحفاوة أقل مقارنة بجيرانها البلقان الآخرين، لا تطيل التفرّس في وجوههم ولا في أشكالهم.. كان ذلك انطباع البدايات. ولكن، بعد الدّهشة ورهبة الملامسة الأولى، ويوما بعد يوم، ستتضح تفاصيل الملمح الحقيقي، وتتوارى تدريجيا الانطباعات السّريعة إلى الوراء، فاسحة المجال للمعاينات الواقعية.. ستظهر للزائر فسيفساء تختصر أوروبا في بقعة واحدة.. فخلف الواجهة الصّارمة والنظرات الخاطفة للمارّة، تتمدّد حياة إنسانية دافئة ومتوهّجة، وتتكاثر معابد الفنّ، وتزدهر حركة تشكيلية

معاصرة، حيث تتقاطع الهويات والإثنيات، التي وجدتْ في المدينة نفسها، نقاط مشتركة تجمع بينها.

عبور الحدود الفاصلة بين دولتي سلوفينيا وكرواتيا، لم يمرّ دونما مماطلة دامت أكثر من نصف ساعة، ومساءلة من طرف الحرس الكرواتي، رغم أنني وصلت الحدود بعد حوالي شهرين من ترسيم انضمام كرواتيا للاتحاد الأوروبي.

عند المعبر، بعد رحلة دامت حوالي ساعة قدوما من ليوبليانا، مرورا ببلدة بريجيس الحدودية، وجدت أمامي أفواجا من السيارات النفعية وشاحنات السلع بلوحات ترقيم سلوفينية، إيطالية، ألمانية ونمساوية تمرّ دونما حرج، في الاتجاهين، بشكل انسيابي ودونما توقف. بمجرد وصولي، توقفت أمام نافذة الحرس الصغيرة، سلّمت جواز سفري الجزائري الأخضر، مرفقا ببطاقة إقامة مؤقتة في فرنسا. حدّق الشرطي بضعة دقائق في الوثيقتين، قلبهما، ثم نادى على زميل له يسأله ترجمة معلومات الجواز المكتوبة بالفرنسية والعربية، وطلب مني أن أركن السيارة جانبا، للسماح للسيارات خلفي بالمرور، وأنتظر. الانتظار في العرف الكرواتي يشبه الانتظار عند العرب: غير محدد زمنيًا. بعد ربع ساعة، لم يظهر الشرطي

نفسه، فنزلت من السيارة، أشعلت سريعا سيجارة، وسمعت شرطيّة تنادي من بعيد: No smoking (ممنوع التدخين) فأطفأتها.

كنت أرى العلم الكرواتي يرفرف فوق رأسي، وأتخيّل شكل البلد الذي أنوي زيارته. لطالما ارتبط في ذهني العلم الكرواتي، بمربعاته الحمراء والبيضاء التي تزين وسطه، بتفصيل قميص منتخب كرواتيا لكره القدم عام 1998، لما شارك، لأول مرة، في كأس العالم بفرنسا، ووصل للنصف النهائي، واحتل المركز الثالث، وترك انطباعا طيبا لدى كل من تابعوه. وقتها كانت تشكيلة المدرب المخضرم ميرسلاف بلاجيفيتش تضم مهاجما مرموقا يدعى دافور شوكار، ووسط ميدان محنك: زومينير بوبان.. عام 1998، فرضت كرواتيا الناشئة حضورا بارزا في محفل الأمم مستفيدة من انتصارات فريق كرة القدم، ومارست حكومة البلد دبلوماسيتها الإقليمية بالاتكاء على أرجل شبابها.. وأنا غارق في استعادة ذكريات ماضي البلد الوردي، جاء الشرطي مكتئب الوجه وصارم النظرات يسألني، بلهجة مقتضبة، عن اسم ولقب والدتي، وعن عنوان إقامتي في الجزائر، والفندق الذي سأقيم فيه في زاغرب. معلومات بوليسية بامتياز. سجّل إجاباتي على ورقة منفصلة ثم اختفى مجددا خلف باب مكتبه الصغير. بعد عشر دقائق عاد ومعه الجواز مختوما. سلمه لي دون أن ينطق بكلمة واحدة. من جهتي رددت فقط بـ: Hvala (شكرا) خافتة. ركبت السيارة وواصلت طريقي

بعد دفع 6 أورو (بحكم أني أجنبي و لا أحمل معي عملة الكونا المحلية) كرسوم لاستخدام الطريق السيّار.

بدا لي الشرطي غير مهذّب في تعامله، أو ربما هو واجب المهنة وضروریاتها وتعلیماتها، ما فرض علیه سلوكیات صارمة! لست أدري! دعوت الله أن لا أصادفه مجددا وواصلت الرّحلة.

على الطريق بدأت زخات مطر تهطل بشكل متقطع، أضافت لونا فاتحا على وجه البلد، ودفئا على جغرافيا كرواتيا التي لا تختلف كثيرا عن جغرافيا شمالي الجزائر، بقمم جبالها العالية، ومشاهد القرى والأرياف المتناثرة، والأراضي الزراعية الخصبة. وبالاقتراب من زاغرب تتراجع، تدريجيا، مشاهد الريف فاسحة المجال أمام التمدن والنمط المعماري الحضري.

غالبا ما ترتبط كرواتيا، في الملصقات والأشرطة السياحية، بصور شواطئها الأدرياتيكية الجنوبيّة، في سبليت و زادار وجزيرة كرك وغيرها، والتي تعتبر قبلة آلاف السياح سنويا (11.8 مليون سائح عام 2012)، والوجهة المفضلة لبعض مشاهير الموسيقى والسينما العالميتين، فالسياحة قطاع يساهم بحصة معتبرة في الدّخل القومي، ينشط ستة أشهر في السنة، مع أن زاغرب العاصمة تحتفظ دائما بصفتها الأصلية: القطب التاريخي

والنواة المؤسسة لتطور البلد ولمخيلة الفرد الكرواتي.. المدينة نفسها تستقبل الزوار و الغرباء بشوارعها الفسيحة، قليلة الازدحام، مع لافتات إرشادية في كل ركن ومفترق طرق، مما سهّل عليّ بلوغ الفندق الذي حجزت فيه سلفا، وهو فندق ذو نجمتين.. لكن يسر الوصول إلى المكان لم يرافقه يسر في التعامل مع أصحاب الفندق. فاجأني ثمن الغرفة، الذي يتجاوز الثمن المسجل على الموقع الإلكتروني للفندق نفسه، والسبب – بحسب موظفة الاستقبال الخمسينية – هو عدم تحديث المعلومات الإلكترونية، كما أن الخدمة المقدمة للزبائن لا تضاهي الأربعين أورو الواجب دفعها لقاء ليلة واحدة، فخدمة الإنترنت تدفع على حدة، والغرف في الداخل ضيقة ولا تطلّ سوى على باحة إسمنتية مُقفرة وموحشة.. كان فندقا زاغربيا بمزاج جزائري.. بما أن الهدف كان زيارة المدينة واكتشافها، فقد تغاضيت على نقائص الفندق، وكتمت غيضي. وضعت حقيبتي على السرير، أخذت دُشًا سريعا، وخرجت، تحت الرذاذ، للتسكع في الخارج.

من الفندق إلى وسط زاغرب، أو ميدان «البان جوزيف يلاتشيش»، نقطة تقاطع كل الأحياء والطرقات، وهمزة الوصل بين المدينتين العتيقة والجديدة، مسافة كيلومترين. كنت أفضل أن أقطعها، يوميا، ذهابا وإيابا، مشيا على الأقدام، بدل التنقل في الباص، كما اقترحت عليّ موظفة الاستقبال في الفندق. ولكن، قبل الوصول إلى وجهتنا، لا بد من المرور عبر

جسر يصل بين ضفتي نهر «سافا»، القادم من سلوفينيا، والذي يمثل موردا مائيا مهما لغالبية الأراضي الزراعية، والتي هي ملك لفئة الخواص، في المناطق المحاذية للمدينة. بعد الجسر ستصادفنا بعض الأحياء السكنية القديمة، بحيطانها المهترئة، المليئة بالخربشات، والغرافيتي المكتوبة باللغة الصربو–كرواتية، مع زوايا متفرقة تتكدس فيها قارورات الخمر والقمامة. هي أحياء جانبية لا يفصلها عن وسط البلد، والوجه السياحي لزاغرب، سوى بضع مئات من الأمتار، بعدها سنجد أنفسنا في محطة القطار، التي تَعج ساعات النَّهار، بحركة كثيفة.. قبالة المحطة نفسها، ينتصب تمثال ضخم لكرالي توميسلاف، يمتطي حصانا وحاملا سيفا، كما لو أنه في حالة حرب أو دفاع عن النفس، وهو الملقب بـ«توميسلاف كرواتيا الأول»، فقد كان دوق الكروات بدءا من عام 910، ثم ملكا عليهم بين عامي 925 و928. كانت مملكته تمتد على طول الساحل الأدرياتيكي، وتشمل أقاليم البوسنة والهرسك وسلوفينيا حاليا، لكن مملكته لم تستمر طويلا، فعام 1000، وقعت تحت سيطرة الدوق «بيترو الثاني أورسيلو»، حاكم ما كان يسمى وقتها «جمهور فونيز (أو البندقية)»، الذي ضمها لحكمه، قبل أن يورّثها ابنه آتون عام 1009. خلف التمثال تظهر الأكاديمية الكرواتية للعلوم والفنون (تعود إلى 1866)، والتي كانت في السابق تحمل اسم الأكاديمية اليوغسلافية للعلوم والفنون، يقابلها تمثال مؤسسها الأسقف جوزيب يوري ستروسماير (1815–1905)، تليها حديقة عامة، يقصدها مساءً، و نهاية الأسبوع، العشاق والعائلات، الصعاليك، والباعة

المتجوّلون، وطريق محاذ يقود مباشرة إلى وجهتنا: ميدان «البان جوزيف يلاتشيش»، وهو ميدان للمشاة فقط، يذكرنا بميدان «ماسينا» بنيس جنوبي فرنسا، ويأخذ قليلا من ملمح ميدان الحبيب بورقيبة في تونس، يمتاز ببناياته المحيطة ذات الطابع الباروكي، التي تحتضن مقار بنوك وشركات تجارية مختلفة، منها شركات متعددة الجنسيات، وبكونه نقطة تلاقي أهم خطوط الترامواي واتجاهاتها.

هناك جلست في مقهى لا يختلف عن مقاهي جادة ديدوش مراد في الجزائر، أرتشف القهوة بهدوء، وأحدق في تمثال يلاتشيش البرونزي، الذي كان مثل توميسلاف يمتطي حصانا ويحمل سيفا، وقد عاش يلاتشيش خلال فترة حكم الإمبراطورية النمساوية (ولد في 1801 ببيترفارادين بسلوفينيا، وتوفي عام 1859 بزاغرب)، وتقلد مناصب بارون ثم كونت، قبل أن يصل رتبة البان، أو الحاكم العسكري (في تقسيم الّرتب قديمًا).. يلاتشيش هو رمز من رموز المدينة، وشخصية تاريخية تلقى إجماعا ويتفق حولها السكان جميعا، كما إن الورقة النقدية من فئة 20 كونا، تحمل صورته، فقد اشتهر بحكمته وحنكته السياسية، ونصوصه الشعرية (التي غلبت عليها النزعة القومية الحماسية)، أكثر مما اشتهر بصلابة شخصيته وصفته العسكرية. ولكن التمثال المنتصب يختصر صفات الرجل المثالية في صفة واحدة، كعسكري محارب، ويلغي عنه صفات إنسانية مهمة أخرى، بشكل يذكّرنا بتمثال الأمير عبد القادر المنتصب وسط الجزائر العاصمة، والذي

يُختصر بتمثال له، في ساحة تحمل اسمه، وهو على حصان يحمل سيفا متجها صوب البحر (تجاه فرنسا)، بشكل يجرّده من الجوانب الأدبيّة والصّوفيّة والسياسيّة التي ميّزت سيرته الطويلة، المرصّعة بالإنجازات.

تبدو زأغرب كما لو أنها مدينة متوحّشة، عدائية، تصدم زائرها بتماثيل رموزها، وهي على هيئة استعداد للهجوم، للمقاومة أو المباغتة، مستعدة لقطع الرأس أو اليد، أو فقء العين، لكن ملامح ناسها الصامتة تعكس المعادلة. في المقهى نفسه، وبالإطلاع على وجوه المارة، شعرت كما لو أنني أجلس في مدينة متوسطية.. قابلتني وجوه هادئة، بعضها أشقر، وبعضها تعلوه مسحة سمراء خفيفة، رجال و نساء بقامات طويلة ومتوسطة، كما نراه في الدول السّلافية المجاورة. لولا اختلاف اللّغة، وتمسك الكروات بلغتهم الأم بشدة، وتراجع انفتاحهم على لغة الجار المتوسطي إيطاليا، أو لغة المهيمن الأميركي: الإنجليزية، لخيّل للزائر أنه في مدينة جنوبي فرنسا أو إسبانيا..كما لا يبدو على الكروات روح صلبة، أو صدامية، فهم قليلو الثرثرة، وأقل نرفزة من الايطاليين.

على موقف التراموای بالسّاحة نفسها، كان كل واحد من المنتظرين منشغلا بهمِّه، وغير مبال بالآخر.. في نظرات العابرين حكايات فردية، وليست جماعية، أوهام وطموحات مشتتة. ففي أيام زيارتي، كانت كرواتيا

قد انضمت لتوها للاتحاد الأوروبي (لتصير العضو الثامن والعشرين)، وكان موضوع انضمامها يمثل محور أهم النقاشات والأحاديث، في الصحف وفي الشارع، وسألت، بالإنجليزية، نادل المقهى عن رأيه في القضية، فأجاب وهو يحك ذقنه ويحرك رأسه يمينا ويسارا: «إن كان الانضمام إلى الاتحاد يفتح فرص شغل جديدة، ويساهم في رفع الرواتب، فلم لا؟»، هو يربط العلاقة بأوروبا الغربية بتوفر ظروف عيش أفضل، ينظر إلى الأشياء بمنطق براغماتي «صائب»، فأعضاء الاتحاد أنفسهم تعاملوا مع البلد من منظور براغماتي، ولم يكونوا ليوافقوا على انضمامه دونما إخضاعه لسلسلة من الضوابط والشروط السياسية والاقتصادية، كفتح السوق المحلية للاستثمارات الأجنبية، والتوقيع على معاهدات حقوق الإنسان، واتفاقيات المحكمة الجنائية الدولية، والتأكد من مساهمة كرواتيا في رفع مؤشرات النمو السنوية للقارة العجوز، فمفاوضات الانضمام استمرت عشر سنوات كاملة، وانتهت بتصويت أكثر من 66 ٪ من الناخبين بـ«نعم»، ليصير ثاني بلد ينضم للاتحاد من بلدان يوغسلافيا سابقا، بعد الجارة سلوفينيا، الذي تربطه بها علاقة شائكة بسبب بعض الكيلومترات من الحدود البحرية المختلف عليها جنوبا.

على طرف الميدان، ووسط لافتات الشركات التجارية والبنوك والوكالات السياحيّة، لمحت مكتبة، واجهتها لم تكن جذابة ولا مغرية

للاقتراب منها، لكنها من الدّاخل، كانت تكتظ بكتب من قارات العالم الخمس، في الأدب والسياسة والعلوم، مترجمة إلى الكرواتيّة، مع أنني لاحظت، من زيارات سابقة، أن العواصم الأوربية الكبرى (برلين أو باريس مثلا) لا تتوفر كثيرا على ترجمات من الأدب الكرواتي، ربما بسبب عدم إتقان اللغة، أو ربما عدم الإلمام بتاريخ أدب البلد وعراقته، خصوصا في الكتابة الشعرية. غالبية الكتب التي تصادفنا عن كرواتيا هي كاتالوغات وكتيّبات سياحية، مع أن البلد أنجب كتّابًا مهمين، نذكر منهم «بافاو بافليتشيش»، أستاذ الأدب المقارن والمعروف بغزارة إصداراته، الروائية والشعرية والنقدية، مثل روايتي «المنسية» (1996) و«كاليغرافيا» (1993)، وهما روايتان بوليسيتان، والشاعرة «إيفانا بودروجيتش»، صاحبة رواية «فندق زاد» (2010)، والكاتبة «دوبراوكا أوغريشيتش»، المختصة في الأدب الرّوسي، والتي انتقلت عام 1993 للعيش في هولندا، بعد اتهامها بالخيانة، بسبب كتاباتها المنتقدة للحمى الوطنية، وعدم رضاها بخيار الانفصال عن يوغسلافيا، ورغم حياة المنفى فقد واصلت أوغريشيتش إصدار أعمالها بلغتها الأم، مثل رواية «وزارة الألم» (2004) وكتاب «لا أحد يرد عليكم» (2005)، ومن الأسماء الأدبيّة الكلاسيكية، نذكر مثلا «ميروسلاف كرليجا» (1893- 1981)، أحد أبرز وجوه الأدب المحلي في كرواتيا القرن العشرين، والذي عارض حكم الامبراطورية المجرية – النمساوية على البلد، كما عارض حكم مملكة يوغسلافيا، قبل أن تصير جمهورية، ويؤسس صحيفة «ريبيلكيا» (1945).

من بين أعماله، المجموعة الشعرية: «نزهات باتريتسا كيرومبو»، ورواية «عودة فيليب لاتينويز»، التي تصور حياة فنان تشكيلي يعيش صراعا حادا مع مختلف الطبقات الاجتماعية والأوساط الثقافية الكرواتية. هذا التنوع الأدبي الكرواتي يكاد يكون غائبا عن المكتبة العربية والعالمية، و الانفتاح عليه هي ضرورة، قصد الاطلاع على تجارب أدبية مُجددة، ومعاينة تاريخ بلد يعيش تحوّلات اجتماعية وسياسية باستمرار.

بالخروج من المكتبة، انخرطت مباشرة في نهج يلاتشيش، المبلّل بقطرات سحابة صيف، وهو نهج يشبه نهج موريس أودان، وسط الجزائر العاصمة، بمحلات تجارية على الجانبين، وعشاق يتمشون على الرصيف، ماسكين أيدي بعضهم بعضا، بلا وجهة محددة، مع فارق وحيد، هو الترامواي الذي يقطع النهج نفسه، ويوفر تنظيم حركة النقل، على عكس الشارع الجزائري حيث زحمة السيارات، والباصات والمارة، تعتبر جزءا لا يتجزأ من اليوميات.

بعد مسير بضع أمتار، يصادف المارّ، تمثال الشاعر «أندريا كوشيتش» (1704-1760) ، وعلى بعد خطوات منه جهة اليمين، كان يجتمع باعة الخضر والملابس والأغراض المنزلية، في سوق شعبيّة صغيرة مفتوحة على الهواء الطلق، تلتئم في السادسة صباحا، وتنقضي عادة في حدود الرابعة بعد الزوال، ولّما يغادر الباعة المكان فلن نجد وراءهم بقايا مرورهم، ولا أكوام

قمامات، مثلما يمكن أن نشاهده في الأسواق العربية، التي تبدأ عادة بشكل منظم، وتنتهي بشكل فوضوي.

في السّوق الزّاغربي التجارة تخضع لمعايير تنظيمية صارمة، والعملية تتم في ظروف نظيفة وصحية، بشكل يحافظ على الوجه الحسن لوسط البلد.

بعد جولة قصيرة وفضولية بالأساس، بغرض الإطلاع فقط على أسعار بعض المواد الغذائية، التي كانت معروضة بالعملة المحلية وبأسعار معقولة مقارنة بمتوسط دخل الفرد (حوالي 600 أورو)، عدت أدراجي إلى طرف النهج، واستدرت يسارا ثم سلكت زقاقا صاعدا، تزيّنه واجهات المطاعم والمقاهي، ورش بيع الذّهب وصياغته، ومحلات الهدايا و التذكارات، يخص المارة وحدهم دون السيارات، يشبه أزقة القصبة الضيّقة، وحارات بيروت، يصعد باتجاه زغرب العتيقة، الضاحية التاريخية، حيث شيدت كثير من الأروقة الفنية، وحيث يوجد مقر البرلمان.

زاغرب العتيقة اختارت أن تنبسط على ربوة عالية، لتحصّن نفسها من العدو، وللدفاع عن حرماتها في مواجهة الغزاة، قبل أن تتحول، تدريجيا، خصوصا في النصف الثاني من القرن الماضي، إلى قلعة فنية مهمة، ليس في كرواتيا فقط، بل في القارة الأوروبية إجمالا. في نهاية الزقاق

المتعرج، كثيف الحركة، سنجد سلّما ينعطف يسارا، ثم يسارا ثانية، لنجد أنفسنا أمام كنيسة كاثوليكية مفتوحة، يقطعها الشارع في الوسط، يجلس على كراسيها الخشبية بعض المارة للتأمل، يشعلون شموعا، ويرتلون صلوات وأدعية، غير مبالين بأفواج الناس التي تمر أمامهم، في حركة ذهاب وإياب، تحجب عنهم تمثال الصليب مرات، وبعض آخر يغتنم فرصة المرور للجلوس في المكان للاستراحة فقط، وليس لممارسة الطقس التعبدي، كما حصل معي. وبمواصلة الطريق الصاعد دائما سنجد أنفسنا أمام مقر برلمان، يختلف تماما عما نراه حول برلمانات عربية، حيث الحراسة الأمنية تقتصر على شرطيين اثنين، رجل وامرأة. كانا يقومان بدور المرشد السياحي، أكثر من دور رجل الأمن، يردان على أسئلة المارة عن بعض الاتجاهات بابتسامة، يرشدانهم، ويلتقطان أيضا صورا لمن أراد. صورة الشرطي الكرواتي مع العابر والسائح، كانت صورة جد مثالية، استثنائية، تبتعد عن النمطية التي تعودنا عليها عربيا، ومنطق الأمر والنهي في علاقته بالمواطن. كلا الطرفين يشعر بأمان تجاه الآخر، والتواصل بينهما ينتقل من دائرة البروتوكولية إلى دائرة الحميمية. من مقر البرلمان انحدرت يسارا على شارع ثانوي لأزور متحف الفنّ الفطري (Museum of Naïve Artt)، ثم، بالقرب منه، متحفا غريبا، لا يشبه المتاحف التي عرفناها سابقا.

لفتت انتباهي لافتة كبيرة وضعت على مدخل بناية صغيرة، كُتب عليها بالإنجليزيّة: «Museum of Broken Relationships» (متحف العلاقات العاطفيّة المنتهية)، عبارة جذابّة تعتلي صورة فتاة صغيرة، بتنورة خضراء فاتحة اللّون، تحمل بين يديها رسالة أغلقت بقلب، كما لو أنها رسالة حبّ، مع إشارة إلى مواعيد افتتاح المتحف، من التاسعة صباحا إلى العاشرة والنصف مساء. بدت لي تسمية المكان غير منسجمة مع صورة اللافتة، العلاقات العاطفية المنتهية، يناسبها السواد، وليس صورة طفلة مبتهجة، تحمل رسالة حب. دخلت وقابلتني كافيتيريا، ثم لوحة كتب عليها باللّغتين الإنجليزية والكرواتية، تشرح ماهية المتحف: «هو متحف يؤرخ لعلاقات حب انتهت». فكرة مثيرة وغامضة في آن.. على الحائط نفسه، عُلّق مقال كتب بالفرنسية عن المتحف، يشيد بأصالة فكرته وجرأتها، وحجم الإقبال عليه. مقال ورد بلغة تفخيمية ومضخّمة، دفعني للتشكيك في مصداقيته. خطوت إلى الأمام مدفوعا بفضول ممزوج بتعجب.. على مدخل قاعات العرض، كانت تقف شابة في الثلاثينات، ببشرة بيضاء وشعر أسود متدل، وابتسامة مبالغ فيها تعلو محيّاها، حييتها وسألتها عن سعر تذكرة الدخول. «35 كونا» قالت، أي ما يعادل حوالي 7 أورو، لكنها لم تكن تقبل سوى العملة النقدية المحلية (الأورو يشار إليه فقط من باب المقارنة مع الأجانب). دفعت الثمن وولجت أولا بهوا خاليا سوى من بعض الملصقات التعريفية بالمكان، تليه صالات صغيرة، تعرض فيها أغراض وحاجات بسيطة ترمز وتؤرخ لعلاقات حبّ ثنائية الجانب،

النقطة المشتركة فيما بينها، انها علاقات انتهت بانفصال طرفيها لسبب من الأسباب، وصارت من الماضي، وأعلى كل غرض معروض نقرأ مختصر قصة الحب التي دارت حوله، وهي قصص حبّ قادمة من دول العالم المختلفة، وليس فقط من كرواتيا.. نجد مثلا مكواة ترمز لقصة حب شابين مصريين، المكواة هي آخر أداة استعملتها الفتاة في التحضير ليوم زفافها، قبل أن تنقطع علاقتها مع من كان يفترض أن يكون زوجها، وأوراقا نقدية تركتها امرأة لحبيبها، على طاولة الأكل، بنيّة أن يستعملها في حال ما احتاج إليها، لكن العلاقة انقطعت بينهما مباشرة، وبقيت الأوراق النقدية تذكارا لماضيهما، ومجلة اشترتها فتاة لعشيقها، وذهبت للقائه قبل أن يبلغها أن ماضيهما العاشق قد انتهى، وأنه طوى الصفحة ومضى.

جوّ المتحف رومانسي، تلفّه موسيقى هادئة تحث على التأمل والتفكير في القصص والأغراض المعروضة ومحاولة تصديقها، وعلى طرح أسئلة عن الغرض من المتحف نفسه أيضا، هل هو يشجّع على خوض تجارب عاشقة؟ أم عدم المجازفة بعلاقات ستنتهي لا محالة؟ ربما الاثنان معا، فهو يحتفي، بالدرجة الأولى، بالعلاقات، ثم العلاقات الفاشلة. أخبرتني موظفة في المتحف: «بدأنا بعرض قصص قليلة، تدريجيا لاقت فكرة المتحف ترحيبا، وصار العشاق يراسلوننا ويبعثون بقصصهم وتذكارات علاقاتهم المنتهية مع الطرف الآخر». على عكس جسر الفنون في باريس، أو ما يصطلح على تسميته «جسر العشاق»، حيث يعلق العاشقان قفلا حديديا،

يكتبان عليه الحرفين الأولين من اسميهما، ويرميان المفتاح في قاع نهر السين، في رمزية على أن العلاقة بينهما ستدوم للأبد، يُشرّع متحف العلاقات العاطفية المنتهية نافذة تطلّ على الوجه الآخر من علاقات الحب، الوجه الدرامي منها، ويذكّر الزوّار والمحبين أن علاقاتهم قد تنتهي و أن مصيرها لن يختلف عن مصير العشاق المعروضة قصصهم على الحيطان والرفوف هناك.

قصص العشاق المعروضة تبدو تارة مسليّة، وتارة أخرى مثيرة للشفقة، قصص تبدو واقعيّة وأخرى تكشف عن بعض الأنانية في تصرف الطرفين، وسؤال ملحّ طفا على ذهني: هل يجب تخليد العلاقات المنتهية؟ أم يجب دفنها لتناسى الحزن الناجم عنها؟.. تخيّلت لحظتها فرضية تأسيس متحف مماثل يجمع قصص العشاق في الوطن العربي، في السودان واليمن وليبيا والمغرب وسوريا وغيرها، ويؤرخ لنهايتها، وكيف ستكون المصائر درامية في غالبيتها، فجلّ العلاقات العاشقة العربية في الزمن المعاصر – بحسب ما تتداوله الألسن وبعض صفحات الجرائد – تنتهي لأسباب ذكوريّة أو نفعية، وفي حالات كثيرة تأتي القطيعة من الرجل قبل المرأة، حيث يكفي أن تخطئ مرة واحدة لتجد نفسها في أروقة المحكمة مرغمة على توقيع وثيقة الطلاق.. تصوُّر متحف مماثل في بلاد عربية يبدو أمر مستعصيا – على الأقل في الفترة الحالية –، بحكم أن العلاقات الثنائية، بين الجنسين،

الخارجة عن قواعد المؤسسة الاجتماعيّة الرسميّة، ما تزال معلقة في ركن «الممنوع».

خرجت من المتحف الصّغير ولساني متلعثم عن طرح سؤال واحد على موظفة الاستقبال الشابة كثيرة الحركة: «ما هو مصير علاقتك العاطفية؟» خشيت أن أحرجها بالسؤال، فاكتفيت بتحيّتها، وانخرطت في الأزقّة و الحارات القديمة، التي تشكّل وجه زاغرب العتيقة، والتي تحوَّل جلّها إلى مناطق جذب سياحي، تضمّ فنادق، ومطاعم ومقاه وبارات وكازينوهات ومراقص.. التسكع فيها يعطي الزائر فرصة التفرج على المدينة في حالاتها المتعددة، ففي النهار تبدو الحركة جدّ عادية، والنّاس إما ماشون في مشاغلهم أو جالسون للأكل و الشرب، أما مساء، فالوضع سيتغير تدريجيا، وتزداد الأزقة حركة وصخبا، وتبقى بعض البارات مفتوحة إلى غاية ساعات الصباح الأولى، محتفية بالليل البلقاني وبروّاده، ومن الطبقات الاجتماعية المختلقة، لكن الإقبال سيخفّ نسبيا بين شهري نوفمبر ومارس، بسبب برد المدينة القارس، ودرجة الحرارة المنخفضة التي تراوح في الشتاء الدرجة الصفر، قبل أن تعود الحياة من جديد، مع شهر أبريل، وبداية الربيع، وتبلغ أوجها شهري جويلية، وأغسطس من كل سنة.

زيارة زاغرب تستوجب زيارة معلمها الدّيني الأهم: كاتدرائية سان ستيفان، الواقعة بأعالي المدينة، في حي كابتول. هي لون من ألوان الهوية القومية، وملمح بارز في تفاصيل العاصمة الكرواتية، نلاحظ صورتها بكثرة في بورتريهات المدينة السياحية، حيث تستقطب شهريا الآلاف من السياح، وتغريهم بشموخها وعمق تاريخها. يعود تاريخ إنشائها إلى القرن الحادي عشر (1093 تحديدا)، قبل أن يهدمها التتار عام 1242، وتظلّ أكثر من قرنين ركاما، قبل أن تسعى جماعات كاثوليكية إلى إعادة بنائها، بهدف مواجهة الغزو العثماني والمد الإسلامي في البلد، حيث حُوّطت ببرج مراقبة عسكري، تحسّبا لأي هجوم طارئ من العثمانيين. مع ذلك، فقد تهاوت مرة ثانية 1880، ليس بسبب عامل بشري، بل بسبب هزّة أرضيّة عنيفة مست المنطقة نهاية القرن السابع عشر، وتكفّل المعماري النمساوي هيرمان بولي بمشروع إعادة بنائها وفق نظرة فنية حضرية معاصرة، أضيف إلى شكلها الأصلي عمودان متوازيان، يؤطران الواجهة الرئيسية، ويرتفعان صوب السماء كسهمين.

كانت الكاتدرائية في حالة ترميم، وتحديث، وحركة الزوّار والسيّاح في الداخل، والصخب والأصوات المرتفعة، توحي بأننا في مكان عمومي، وليس مكانا دينياً مُقدساً، هو واقع يتكرر باستمرار، كل يوم، ويثير سخط المتعبدين، والقساوسة، والذين فشلت محاولاتهم في توزيع بطاقات إرشادية للزوار، تدعوهم فيها للهدوء، في بلوغ مقصدها، فالناس بالداخل، أطفالا

وكبارا، منشغلون بالتقاط الصور، بكاميراتهم، وهواتفهم (باستخدام الفلاش عادة نظرا لعتمة المكان)، و التحدث فيما بينهم بصوت عال أحيانا، يمتزج ببكاء وصراخ الصغار، بشكل يشوش على خشوع بعض المتدينين، الذين يقصدون الكاتدرائية للصلاة والدعاء، خصوصا يوم الأحد.. كما أن المشهد في الخارج لا يختلف عمّا هو عليه من الداخل: مجموعات صغيرة من السياح متناثرة أمام بوابة الكاتدرائية، ومارة في نهاب وإياب، وصياح ولغات مختلفة متداخلة فيما بينها (إسبانية، روسية، ألمانية، الخ)، وبالكاد نميّز بعضها عن بعض، كل واحد يتكلم لغة، ووسط ضوضاء اللّحظة تتشابك الأصوات والكلمات مع بعضها بعض، وتمّحي معها اللغة الكرواتية أيضا، التي لا نسمعها كثيرا هناك.

بعد استراحة قصيرة أمام نافورة تزيّن باحة الكاتدرائية الخارجية، فكرت فجأة في زيارة مسجد زغرب. قبل وصولي للعاصمة الكرواتية، لم أكن أفكر في زيارة بيت صلاة المسلمين، ولكن الفكرة ألحّت علي، وبدا لي، بعد زيارة الكاتدرائية، من المنطقي زيارة الجامع أو (Djamia) (باللغة الصربوكرواتية)، والاطلاع على حال الطائفة المسلمة في البلد.

زاغرب تقع في محور الفصل بين كاثوليكي أوروبا الوسطى ومسلمي جنوب شرقي أوروبا، فهي تنبض، في الوقت نفسه، بالتقاليد الكاثوليكية

الكنسية والعادات الإسلامية الشرقية. بحسب إحصائيات 2011، فقد بلغ تعداد سكان البلد أربعة ملايين وثلاثمائة ألف نسمة، مقسمة كالآتي: 90.4 ٪ كروات، 4.4 ٪ صرب و5.2 ٪ من عرقيات أخرى مختلفة. وبالاستناد إلى أرقام رسمية، فإن عدد المسلمين يتراوح في حدود الـ60.000 مسلم، أصولهم كرواتية وبوسنية وألبانية وغيرها، وهو ما يعني حوالي 1.3 ٪ من إجمالي السكان، وهو رقم ضئيل، لكن حضورهم الاجتماعي واضح ولا يخفى عن العيان.

للتوجه إلى المسجد، توجّب عليّ العودة إلى قلب ميدان يلاتشيش، حيث يوجد مكتب استعلامات سياحية، هناك طلبت من موظفة عشرينية، بشعر أصفر فاتح، مع خصلات ملونة بالأزرق، وعينين زرقاوين حادتي النظر، موقع المسجد، وردّت بسرعة بإشارة بيديها، قبل أن تستدرك، بعدما استوعبت أنها تتحدث مع أجنبي وليس مع ابن المدينة، بإخراج خارطة، وإرشادي إلى اسم الضاحية التي يوجد فيها المسجد: فولنيغو فيتشيفو، اسم يصعب نطقه للوهلة الأولى، لحسن الحظ فقد كان مدوّنا على الخارطة، ونصحتني بركوب الترامواي رقم 6. استدرت وخرجت بعدما شكرتها: hvala! thank you!، ووقفت في الموقف، أنظر مجددا في وجوه المارّة والمنتظرين، منتبها إلى سلوكياتهم الصغيرة، في انتظار وصول الترامواي: شاب يلعب بالهاتف النقال، أربعينية ترتّب الماكياج وتنظر إلى وجهها في مرآة حقيبة صغيرة، وأخرى أصغر منها قليلا تدخن بهدوء.. ولم يتأخر

الترامواي أكثر من بضع دقائق، لأجد نفسي جالسا بين مجموعة من المراهقين، وبالي مركز على أسماء المحطات التي يمر بها، كي لا أضيع محطتي، ووجهتي، وأتوه في مدينة لم أكن أعرفها كفاية.

بالخروج من وسط البلد، مررنا على أحياء شعبية، بدت عليها تفاصيل الفقر والحياة البسيطة. أحياء حيث تتلون الجدران برسومات الغرافيتي، وتعلو البنايات الموجهة لّما يسمّى بالسكن الاجتماعي، وهو نمط بناء عمراني، من عمارات عادية، من أربعة طوابق فأكثر، تبدو كطفرة غير متناسقة مع الوسط العام، نجدها بكثرة في الجزائر، تسعى السّلطات من خلالها إلى التخفيف من أزمة السكن في البلد، على حساب الحد الأدنى من رفاهية المواطن، حيث تتخندق عائلات صغيرة وأخرى كبيرة في شقق أحيانا لا تكفي لعيش أكثر من شخصين، الهدف هو ضمان سقف للمواطن وكفى، دون الخوض في صغر مساحات الشقق، وعدم تهيئة بعضها بما يسمح لعيش معقول للعائلات.. الصورة التّي نعرفها عن قلب زغرب السياحي النابض ليست نفسها التي نراها في شوارع المدينة والأزقة الخلفية، الفارق بين الوسط والضاحية شاسع، ونمطا الحياة والمعمار مختلفان أيضا.

بعد توقف في خمس محطات، وصلت الوجهة المحددة. نزلت من الترامواي، خرجت من المحطة، وسألت أول شاب مرّ أمامي: Djamia? (المسجد). فهم قصدي وأشار عليّ بالتوجه يسارا. وجدت نفسي في حارة طويلة، حيث الإسمنت يزاحم اخضرار المكان، وعلى طرف الشارع كانت

تبدو صومعة المسجد البيضاء وقبابها الخضراء، والذي كان في الحقيقة مركزا إسلاميا متكاملا، يضم مسجدا ومركزا لتدريس العربية وعلوم القرآن. لما وصلت كان آذان الظهر يَصلني خافتا. دخلت وتوضأت والتحقت بقاعة الصّلاة، التي لم تكن تضم أكثر من عشرين شخصا، مع الإمام، بما يعادل صفا ونصف صف، جاؤوا لتأدية الصلاة. ولكن ما شد انتباهي أكثر هو موقع النساء من المسجد. لم يكن بينهن وبين الرجال حاجب ولا عازل أو فاصل إسمنتي كما نراه عادة في مساجد عربية، وكان لهن الطابق العلوي كاملا، يشتركن ويتزاحمن مع الرجال في مدخل واحد، وفي ركن مشترك لوضع الأحذية. كان التواصل بين الجنسين يتمّ بشكل تلقائي، وهي ملاحظة سنجدها أيضا في مساجد البوسنة والهرسك، كما أن المسجد نفسه يصر على هويته الإسلامية بتعليق علم الإسلام الأخضر، بهلال ونجمة أبيضين، فوق المنبر مباشرة.

بعد الصلاة والتسليم أخذ الإمام في تأدية بعض الابتهالات، بلغة عربية تختلط بلكنة محلية: « الله أكبر !.. أستغفر الله !.. سبحان الله !..»، والمصلون يرددون وراءه، قبل أن ينفضّ الجمع، كل إلى وجهته، وأذهب إلى المقصورة لمصافحة الإمام الشاب والتحدث معه قليلا. كان شابا كرواتيا في الثلاثينات من العمر، يلبس رداء أسود ويعتمر عمامة تركية سوداء وبيضاء. «هنا مفترق طرق مسلمي كرواتيا. يأتون للصلاة وللقاء وللتحدث وللتعارف أيضا» يقول. فالمسجد يقوم بدور محوري في تنظيم حياتهم

اليومية وفي رسم معالم حضورهم في المجتمع عموما، كما يتكفل بعقد قران المسلمين الكروات وفق التعاليم الشرعية، مع تنظيم دورات رياضية وترفيهية لأطفال العائلات المسلمة وإفطار الصائمين في شهر رمضان. «على خلاف بعض دول الجوار ليست لدينا مشاكل في تأدية الشعائر الإسلامية» يضيف.

فهناك يعتبر الصرب أقلية، والمتعصبون منهم أقلية جدا، بشكل لا يفتح المجال أمام الاحتكاكات، أو الصدمات العرقية والعقائدية فيما بينهم.

تاريخيا، يعود تأسيس مسجد زاغرب إلى بداية القرن العشرين، وأول مُفْتٍ لمسلمي كرواتيا يدعى الشيخ عصمت (1919-1945)، وعرف المسجد على مرّ السنوات تطورات وتوسيعات، كما شهد زيارة كثير من الشخصيات و القيادات الإسلامية المعروفة، مثل رئيس الوزراء الماليزي الأسبق مهاتير محمد، والرئيس الإيراني الأسبق محمد خاتمي، كما تحوّل، مع الوقت، إلى قبلة للتبادل و التحاور بين الديانات باستضافة شخصيات دينية من اليهودية والمسيحية والتحاور معها، فمفتي مسلمي كرواتيا وقت زيارتي إليها «سيفكو آفندي عمروباشيتش»، الذي وُلد في البوسنة ودرس في ليبيا، معروف عليه الانفتاح على مختلف الديانات. كما أنّ المسجد نفسه يظلّ محور تجاذبات بين دول إسلاميّة مختلفة، تحاول كل واحدة منها كسب رهان التأثير عليه، وبالتالي كسب نفوذ على مسلمي البلد.

بالنزول إلى الطابق السفلي من المركز، صادفت مجموعة من المراهقين، من الجنسين، يجلسون في مجموعتين متفرقتين، يتحدثون ويضحكون.. كانوا من أبناء المسلمين، لا يبدو عليهم حرج في هدم بعض الكليشيهات المنتشرة بين نظرائهم في دول عربية، وفي العلاقة الملتبسة بين الذكر و الأنثى. مرت أمامهم وحييتهم: «السلام عليكم!». لاحظوا أن اللهجة لم تكن كرواتية، فردوا بسلام متمطط، مرفق بنظرات حائرة لغريب يزور المكان بغير سبب.

بعد ظهيرة اليوم الأخير، تحوّلت السماء مجددًا من الأزرق إلى الرّمادي، بدت شاحبة، ومهيأة لتعكير صفو الساعات الأخيرة من الزيارة. ودون مقدمات، بدأ المطر في الهطول غزيرا، وما هي إلا بضع دقائق حتى صارت أطراف شوارع وسط البلد مستنقعات ووديانا صغيرة جارية، ولكن ليس بالحدة نفسها التي يمكن أن نراها في الجزائر العاصمة، أو وهران مثلا، حيث تكفي بعض المليلترات لتتحول المدينتان إلى مدن عائمة بامتياز، تُشل فيها حركة المرور، وتعلن فيها حالة الطوارئ، بشكل يستوجب تدخل الشرطة والدفاع المدني، والمواطنين العاديين، والله أعلم إن كانت ستفرج أو لا!

لجأت إلى مدخل بناية سكنية و إدارية في آن، بطابقين، واحتميت كقط مذعور من المطر، وبقيت أشاهد من الداخل حركة المارة، وهرولتهم في كل الاتجاهات، هربا من بركات السماء. بعد لحظات، التحق رجلان بالمكان نفسه، وأخذا يتحدثان ويقهقهان بكرواتية لم أفهمها طبعا. انتظرت أن يتوقف المطر فجأة، لكنه لم يفعل، كما أنني لم أرد منحه فرصة ليقف مانعا أمام رغبتي في استكشاف ما تبقى من المكان. ما إن خفّت وتيرة التساقط حتى خرجت، أحسب خطواتي وأمشي قفزا فوق المستنقعات الصغيرة التي تشكلت على الأرصفة. كعادتي، لم أكن أحمل معي مطرية، فشاب جنوبي مثلي، تربّى تحت الشمس، لا يمتلك ثقافة شتوية، ولا عادات العيش تحت سماء ملبّدة ومضطربة. فقد تعودت على المشي تحت المطر، ليس تحديا، بل فقط تمسكا بعادة فطرية سيئة لم أستطع الإقلاع عنها. لم يسبق لي، على ما أذكر، أن اشتريت مطريّة. لم تكن يوما في اهتماماتي.. شدَّ انتباهي مشهد شابة في مقتبل العمر، تسارع الخطو، كما لو أنها كانت غاضبة من المطر المفاجئ. فقد بلّل شعرها، الذي ربما قضت ساعات في تسريحه والاعتناء به، قبل أن يعبث بخصلاتها، ويشوّه ماكياجها، ويعيدها إلى نقطة البدايات.. من علاقاتي الوديّة مع نساء كثيرات، أدركت أن من أكثر المناطق حساسيّة في صورتهن هي الشعر، هو جزء من التركيبة الجمالية الأهم، يعتنين به، ويخاصمن من لا يولي اهتماما به ومن يحاول الإنقاص من قيمته.. شعر المرأة وتسريحتها، مهما كان شكلهما، هما ترمومتر جمالها.

زرت تحت الرذاذ حديقة المدينة البوتانية، حيث تلتقي مئات الأنواع النباتية، القادمة من قارات العالم الخمس، والتي تحيا تحت ظروف اصطناعية، في مناخ المدينة القاري، الذي يشهد تساقطا طوال العام، بما في ذلك صيفا. فمناخ زغرب هو مناسب لنشوء برار مثلا، وليس لعيش بعض الأنواع النباتية القادمة خصوصا من الجنوب الدافئ للكرة الأرضية.

لمّا خرجت من الحديقة، كان المطر قد توقف، والحياة عادت سريعا إلى سكّتها كما قبل، ففكرت أن أمشي بلا وجهة، ووجدتني، بعد بضع دقائق، أقف أمام المسرح الوطني الكرواتي، ببنائه نيوباروكي الجذّاب، فهو مبنى يرتبط ارتباطا عضويا بتاريخ البلد الثقافي، دشّن عام 1895، من طرف الإمبراطور فرانسوا جوزيف الأول، ومرّ على ركحه فنانون عالميون كبار، مثل الممثلة الفرنسية سارة برنار (1844-1923) والموسيقار الألماني ريتشارد ستروس (1864-1949). وتضمّ كرواتيا مسارح كبيرة وتاريخية أخرى، تحمل كلها صفة «مسرح وطني»، في مدن رييكا، فارازدين وأوسييك، لكن مسرح زاغرب يحظى، على خلاف غيره، بمقام الحظوة، و يُنظر إليه كرمز ثابت من رموز الدّولة.

تركت زاغرب خلف ظهري وسرت عائدا إلى الفندق.. عاصمة كرواتيا، وعلى عكس ما تخيّلت في البداية، هي مدينة تعيش في انسجام مع

تاريخها، ومع الأساطير المؤسّسة لها.. تبدو مستقرة وغير مستعجلة الركض ورفع الشعارات المستقبلية الجذابة والمرونقة، كما تفعل جاراتها في أوروبا الغربية.. تحتفظ لنفسها بجانب من التستر ومن النرجسية أيضا، وتؤرخ لراهنها بصبر وهدوء.

الكروات الذين صادفتهم وتحدثت قليلا إليهم لا يعرفون الكثير عن العرب، لا يعرفون أن بلاد المتنبي والخطّابي قد صارت ناطحات سحاب ومدنا بمقاسات عصرية.. «ماذا يحصل في مصر؟» سألني صاحب المكتبة الخمسيني، بعدما عرف أني قادم من الجزائر. «مصر في طريقها نحو الأفضل» رددت عليه، فصمت. ثم سألني عن وضع السياحة وعن أسعار الفنادق وتكلفة السفر هناك. الناس في كرواتيا يحسبون تكاليف الحياة بالدورو، كما يقول المثل الجزائري، بالسنتيم والمليميتر. ويُظهرون استياء وسخطا من أداء الحكومة، ومن زمرة السياسيين التي تحكم البلد، لكنه استياء مسالم، لم يبلغ درجة الثورة أو العصيان أو التمرد، فهم يراهنون، قبل كل شيء، على منجزاتهم الشخصية، لا على فضائل النظام عليهم، كما يحصل في بعض البلدان العربية. يؤسسون لمشاريعهم الشخصية المستقبلية ويتأففون باستمرار من سياسة الضرائب، رغم أنها ما تزال رحيمة، وغير منهكة مقارنة بما هو عليه الحال في فرنسا مثلا، لكنّهم يرون فيها سببا كافيا ومقنعا للانتخاب أو عدم الانتخاب على برنامج سياسي ما، أو حزب ما. قلت في نفسي: يا حسرتاه عليك يا جزائر! الناس هناك لا ينظرون إلى

البرامج السياسية، بل يكتفون فقط بالنظر والتدقيق في اسم المرشح، نسبه وأصل المنطقة التي ينحدر منها.. الانتخابات في بلاد لالة فاطمة نسومر تحركها وتحددها التوجهات القبلية والعشائرية، وهو الحال نفسه في دول الجوار.

لم أشتر تذكارات ولا بطاقات من زاغرب، كما يفعل السياح عادة، فأنا لم أشعر يوما بنفسي سائحا، فكل الأمكنة التي أزورها، أحاول سريعا الانصهار في ليونتها وصلابتها، والاختلاط مباشرة بناسها، مع النظر إليها دائما من زاوية غرض واحد: الكتابة عنها، بشكل يحرم عنيّ أحيانا متعة عيش اللحظة، والاستمتاع بسحر المدن.. وحقيبة سفري هي غالبا لوازم تنقّل خفيفة (الحد الأدنى من الملابس والحاجيات الضرورية) وكتب وورق وأقلام لتوثيق مشاهدات وأحداث.. من شوارع زاغرب وساحاتها حملت ذكريات مدينة برغبة متجددة في العيش، بملامح شبابية متفتحة، مقنعا نفسي بضرورة العودة إليها بعد عشرين عاما إن أمكن لأرى ماذا حققت من أحلامها الفتية، وإن تجاوزت عقدة الماضي اليوغسلافي القريب.

سراييفو

أمشي خلف ظلّي..
وأردّد أنشودة طفوليّة

الطريق من زاغرب إلى سراييفو تتجاوز قليلا الأربعمائة كيلومتر.

دققت صباحا في خارطة الطريق وقدّرت مدّة السفريّة بحوالي خمس ساعات، مع حساب الوقت المستقطع من التوقف أمام حاجز حرس الحدود البوسني. ألقيت نظرة سريعة على أغراضي الشخصيّة، رميتها على المقعد الخلفي من السيارة، وتركت صاحب الفندق وهو يعدّ أورقا نقدية، غير مبال بما يدور حوله، ولا بخطواتي المتثاقلة على الممرّ الرابط بين الاستقبال والمخرج، شغّلت المحرّك واتجهت جنوبا، صوب حياة أخرى، أفقا آخر، ممتزج الثقافات والعرقيات، غير منتم للاتحاد المتعثر، الذي بدأت تبرز عليه ملامح الشيخوخة المبكرة.

سراييفو تدغدغ الذاكرة كلحن بعيد عائم، يظهر ويختفي دون توقف. هي وجه مقسّم نصفين: بين شرق مسلم وغرب مسيحي، هي لوحة فنيّة طبيعية ملطّخة بسواد سنوات الحربين العالميتين ثم الحرب الأهلية، وهي العنوان الأبرز الذي كان يتكرر ويتصدر النشرات الإخبارية منتصف التسعينات.

ربيع 2012، أذكر أنني تحمّست كثيرا لمشاهدة فيلم «جيتسا، أطفال سراييفو»، ضمن منافسات مهرجان كان سينمائي، لكنه بدا لي لاحقا جد سطحي، ولم أر فيه سوى سراييفو متخيّلة ومختصرة، مما دفعني وقتها إلى تغيير رأيي وعدم حضور الندوة الصحافية التي تلت عرض الفيلم، والإقلاع عن فكرة محاورة مخرجة الفيلم نفسه، متمسكا برغبتي في زيارة المدينة بنفسي يوما، وملاقاة حاراتها و أبنائها مباشرة.

كنت متجها صوب العاصمة البوسنية، ولا شيء يدور في ذهني سوى مشاهد مُهرّبة من صور تلفزيونية وألبومات صور قديمة، أفكر في ملامح بشر لا يختلفون عني، يشبهون شيئا من عالمي الجزائري، الذي جئت منه.

لست أعرف كيف ولد تعلقي بسراييفو، قبل أن أزورها أو أفكر في زيارتها. كانت جد حاضرة في مخيلتي، كنت كما لو أنني أعرفها وأعرف أهلها. ربما السبب يعود إلى الجرح الذي ما يزال ظاهرا على محيّاها،

تراجيديا الحرب التي ألبستها ثوبا غير ثوبها. سنوات الطفولة في الجزائر، في سنّ العاشرة، كنا في المدرسة، وفي فرقة الكشافة، نغني لأطفال سراييفو، كنا مثلهم نعيش على وقع الموت والدّم، وصور القتل اليومي، مما جعل تقاربنا أمرا طبيعيا وضرورة تاريخية. ومن بين كل مدن البلقان، بدت لي سراييفو قطعة من القلب، ولا تكتمل رحلة في المنطقة دون زيارتها.

كما دخلت زاغرب صباحا، غادرتها صباحا، وتحت رذاذ دائم، متبعا لوحات الإشارات واتجاهات المدن، كي لا أضيع هدفي، وطريقي إلى البوسنة، مرورًا عبر مدينة كوتينا، ثم نوفسكا، حيث كانت تمتدّ، على جنبات الطريق، الحقول الزراعية الواسعة، التي تحدّها جبال عالية، ولا نرى فيها من البشر إلا القليل، فقد صارت الآلة تنوب على اليد الإنسانية بامتياز. قبل وصول نقطة اللّقاء بين البلدين وعبور الحدود، يلزم المرور على منطقة اسمها: سلافونسكي برود، وهي أقرب معبر حدود مفتوح لمرور المسافرين، وبالاقتراب منه، ورغم أن الخارطة تشير أنني لم أكن أبعد عن البوسنة سوى بحوالي 50 كيلومترا، فإن اللافت للانتباه أن السلطات الكرواتية لم تكلّف نفسها وضع أيّ لوحة أو إشارة تحمل اسم البوسنة، كل شيء كان يبعث على انطباع أن الطريق يمتد من كرواتيا إلى كرواتيا نفسها، وليس إلى دولة أخرى مستقلة. اعتمدت فقط على الخارطة التي كانت

معي، ووصلت إلى نقطة العبور الكرواتية، التي لم أتأخر فيها أكثر من خمس دقائق للمرور، قبل أن أدخل أراضي البوسنة والهرسك.

❖ ❖ ❖

أمسك حرس الحدود البوسني جواز سفري. قلبه يمينا وشمالا. حاول أن يقرأ ما هو مكتوب بالعربية وبالفرنسية. سألني: alžirski؟ (جزائري؟) أجبت بنعم صامتة. أطلّ على ترقيم السيارة السلوفيني ثم نادى على زميل له: «انظر، إنه جزائري!» قال. ردّ عليه الزميل: «إنه مسلم. أنظر إلى اسمه». لم أتدخل في حوارياتهما. بقيت فقط أحدّق فيهما وأنظر على جانبي إلى الناس وهم يعبرون الحدود بين البلدين مشيا وعلى درّاجات هوائية. يذهبون إلى كرواتيا للتسوّق واقتناء ضروريات من بعض المحلات ويعودون إلى بلداتهم لإعادة بيعها. يعبرون إلى الاتحاد الأوروبي ثم يعودون إلى مساكنهم البعيدة عن سياسة بروكسيل.. أعاد الشرطي نفسه النظر في ترقيم السيارة الثانية، وأنا أحدّق فيه دائما بصمت. في سلوفينيا، أذكر أن أحدهم حذّرني من الذهاب إلى البوسنة بسيارة تحمل ترقيما كرواتيا أو صربيا، مع ضرورة تجنب كرواتيا أيضا بسيارة من ترقيم صربي أو بوسني، فدول الجوار الثلاث لم تضمّد جراحها بعد.

سلمني أخيرا الجواز دون ختم، ولم أتحدث إليه، فقد كنت متلهفا لرؤية بلد يعشش عميقا في بالي، وبمجرد تجاوز المعبر ببضع أمتار بدأت

المشاهد التي تركتها على الضّفة الأخرى في التغيّر سريعا. فالطرق كانت مهترئة، قديمة، في حاجة عاجلة إلى صيانة ، تملأها حفر ومطبّات في غير مكانها، بشكل يذكّرنا بوضعية الطرقات في الجزائر، حيث يمكن أن نجد مطبا على طريق سريع، أو مطبين خلف بعضهما بعضا على طريق فرعي صغير، وإن سئلنا لماذا فسنسمع الإجابة المثالية: الله أعلم! على جانبي الطرقات، تراءت لي بعض الضّيع المشتتة هنا وهناك، والتي تتوسطها غالبا منازل وبنايات، توحي بأنها لملاك من أصحاب مستوى اجتماعي جيد. سكان المنطقة الشماليّة من البوسنة عرفوا كيف يحمون المنطقة من النزاعات المسلحة سنوات التسعينات، ويحصّنونها، وعرفت المنطقة استقرارا نسبيا مقارنة بمدن وسط وجنوبي البلاد والمتاخمة للحدود مع جمهورية صربيا.

المحطة الأولى التي نمرّ عليها في طريقنا صوب سراييفو هي بلدة دوبوي، والتي تعتبر نقطة تقاطع أهم خطوط السّكك الحديدية في البلاد، وهو ما منحها حظوة احتضان مقر الشركة الوطنية للنقل بالسكك الحديدية، وتاريخيا هي قلعة ما كان يسمى جيش الحلفاء، الذي أسّسه الماريشال تيتو لمواجهة الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية، قبل أن يقوم الجيش نفسه بدور آخر لاحقا، وهو تشكيل وحدات عسكرية لمقاومة مشروع انفصال كرواتيا، ودوبوي بلدة تنتمي جغرافيا إلى ما يسمى: جمهورية صرب البوسنة، والتي تشكل رفقة فيدرالية البوسنة والهرسك دولة البوسنة والهرسك.

لمّا وصلت وسط دوبوي، كان الوقت زوالا. فكرت في أخذ سندويتش وقهوة والاستراحة قليلا. ركنت السيارة قرب مطعم ومقهى، دخلت وسألت النادل: هل تقبلون الأورو؟ كلا، أجاب. والحل؟.. اقترح عليّ تغيير العملة. أين؟ لا توجد مكاتب صرافة قريبة. أرشدني إلى محطة بنزين بالقرب من فندق صغير، قال إن فيها شابا يغيّر الأورو بالماركا البوسنية. توجّهت إلى المقصد وسألت عنه فلم أجده. فقد كان في سفرية على الضفة الأخرى، في كرواتيا. بالتالي لم أستطيع لا أكل سندويتش ولا شرب فنجان قهوة، فقد تمنّعوا عن قبض الأورو، مما اضطرني للعودة خائبا إلى السيارة، على أمل الأكل والشرب بمجرد الوصول إلى سراييفو، بعد إيجاد مكتب صرافة أوّلا طبعا.

دخول عاصمة البوسنة والهرسك يشبه دخول مدينة عاصية، ومتوحّدة في آن. كل شيء فيها يبعث في نفسي حنينا إلى أمكنة سابقة، عرفتها وعشت فيها. وأول قبلة توجّب عليّ السؤال عنها هي «باشتارجيا»، وسط البلد الصاخب، حيث كنت قد حجزت في فندق صغير هناك. مررت بشوارع جانبيّة ونصحني أحد المارّة بتتبع مسار نهر ميلجاكا، الذي يقطع المدينة نصفين، من شرقها إلى غربها، فهو هوية سراييفو الهيدروليكية، وبطاقتها التاريخية، فعلى ضفته وقعت حادثة الاغتيال الشهيرة صيف 1914، التي راح ضحيّتها أرشيدوق النمسا ووليّ عهدها فرانسوا

فرديناند، وزوجته دوقة هونينبارغ، وكانت سببا مباشرا في اندلاع الحرب العالمية الأولى. عمليّة نفّذها الشاب البوسني جافريلو برانسيب (لم يكن حينها يتجاوز العشرين سنة)، عضو تنظيم قومي كان يسمى «البوسنة الفتاة».

كان التاريخ يهمّهم على ضفة النهر، و أنا أعبر ناظرا إلى الإشارات، وباحثا عن دليل يقودوني صوب وجهتي، بعد دقائق من الزحمة الخفيفة وجدتني في حيّ باشتارجيا، أدخله من جهة ساحة النبع، أو ساحة الحمام، كما يسميها آخرون، حيث تتجمع أسراب الحمام يوميا لالتقاط فتات، ويلتقط معها المارة صورا، ثم أصعد صوب هضبة مقابلة، بحثا عن فندق صغير نسيت أن أرسم خريطة الوصول إليه، كما أفعل عادة مع الوجهات التي أزروها لأول مرة. «في البوسنة، لا تنظر كثيرا في الخرائط، اسأل الناس إن أردت التوجّه إلى مكان ما» أخبرني صديقي السلوفيني. توقّفت أمام فندق على الطريق، دخلت، وسألت فتاة ثخينة نوعا ما، ذات شعر أحمر قان، تتحدث الإنجليزية بطلاقة عن فندق اسمه «طلال». نظرت إليّ من الأسفل إلى الأعلى، ثم قالت إنها لم تسمع عنه قبلا، رغم أن الفندق، وبعدما وصلت إليه بسؤال المارّة، لم يكن يبعد عن فندقها بأكثر من 300 متر. ربما هي لم تردّ من باب عدم خدمة المنافس، أو أنها غارت من فقد زبون لصالح فندق صغير بالكاد يُرى، يشبه المرقد. لمّا دخلت غرفة فندق طلال لم يكن شيئا يوحي بأننا في فندق ذي ثلاثة نجوم: سرير صغير وأثاث

عادي، من النوع زهيد الثمن ونافذة واسعة تطلّ على شارع سكني ضيق، ولا خدمات أخرى تُعرض عدا النّوم وفطور الصباح، المكوّن أساسا من قهوة وحليب وكأس عصير وحبّتي بيض مسلوق. لم أتأسف كثيرا، فقد اخترت الفندق نفسه بحساب ميزانية السّفر، وكنت مضطرا للاقتصاد قدر المستطاع لإكمال الرّحلة.

وضعت أغراضي على السرير ونزلت لبهو الاستقبال أسأل الموظفة الشابة، ممشوقة القوام، عن أقرب مكتب صرافة، وقبل أن تجيبني سألتني إن كنت سأدفع ثمن الغرفة حالا أو في نهاية الإقامة. أخبرتها أنني سأدفع لاحقا، ودونما تعيين وتحديد أخبرتني أن مكاتب الصرافة في باشتارجيا، يعني باشتارجيا وكفى! وهناك عليّ أن أبحث و أسأل مجددا.. لم يكن الأمر صعبا، وسط المدينة يعرف إقبالا سياحيا من الأجانب، وأكشاك الصرافة في كل زاوية، والعملة المحليّة في تراجع مقارنة بعملة الجار كرواتيا، ومقابل مائة أورو كان يمكنني قضاء ثلاثة أيام بشكل جيد، مع دفع كل الضروريات من أكل وشرب وإقامة.

في باشتارجيا شممت روائح قصبة الجزائر العاصمة، فالمنطقتان تعودان إلى الحقبة العثمانية، وكلاهما بني على هضبة، تنتهي الأولى في نهر والثانية في بحر.. باشتارجيا تعني باللّغة التركيّة شارع التجارة، وهي إلى

اليوم شارع مكتظ بالمحلات والمطاعم والمقاهي، فهي مركز المدينة المستيقظ ليلا ونهارا، يكاد لا يغمض له جفن. ويعود فضل بناء وشهرة الحيّ لباي المدينة غازي خسرو بيك (1480-1541)، الذي حكم سبع عشرة سنة كاملة، عصر سليمان القانوني، وكان له تأثير في الداخل وعلى الإقليم الأوروبي. فهو باني مسجد عظيم يحمل اسمه، يعتبر من أجمل مساجد سراييفو ومنطقة البلقان إجمالا، يحظى، مع مقامه، بزيارات المريدين والسيّاح، من مسلمين وغير مسلمين.

غيّرت بعض وريقات الأورو، وتوجّهت إلى أول مطعم صادفني. جلست ودونما تفكير طلبت «تشافابتشيشي»، طبق محلي شهير، يحضر باللحم، وبطريقة تقليدية، ويحشى عادة في خبز محلي يسمى: ليبنيا، ويسميه بعض آخر لوبون، ويستحبّ أن يكون مرفقا بقطع صغيرة من البصل وبهارات، وأحيانا بالجبن، و تشافابتشيشي تكاد تكون الوجبة السريعة اليومية في البوسنة، هي نظير الكرنتيكا في الجزائر، أو اللبلابي في تونس، أكلة شعبية وعنوان هوية المطبخ البلقاني عموما. تحكي بعض المصادر التاريخية أن الأكلة نفسها ظهرت سنوات الحكم العثماني، وتطورت لاحقا على يد الصرب، ثم ترسخت في موائد سكان سراييفو، قبل أن تنتقل لاحقا، بفضل حركة المغتربين، نحو أوروبا الغربية، وتصير متوفرة خصوصا في مطاعم ألمانيا والنمسا. بعد الأكل، لا بديل عن قهوة تركية، لاستعادة الأنفاس والاستراحة من رحلة حوالي خمس ساعات. فالجلوس

على ناصية المطعم، للأكل والشرب، والتأمل في حركة المارّة، وسماع أصوات وكلمات بلغة أجنبية عنّي، يضع الغريب في قلب المشهد، ويهيئ نفسه لدخول المغامرة، وفتح بوابة الغامض والعجائبي في المدينة.

حين قمت من مكاني، ودفعت الحساب، كانت المدينة تتزيّن لي، والتعب يسري في جسدي. قررت أن أتمشى قليلا، بلا هدف، أن أتسكع، حيث يمكن لقدميّ أن تحملاني. دخلت على حارات بأرصفة حجرية وتلمّست جدران البنايات العبقة بالتاريخ، وشممت رائحتها العتيقة، واستحضرت شيئا من الذاكرة المثقوبة، من أحياء قسنطينة وعنابة، ومدينتي الجنوبية الصغيرة. ففي سراييفو تمحى المسافات وتتقارب تفاصيل الحياة وتتقاطع فيما بينها. الحياة هناك، رغم ما يرافقها من قلق، تشعر المقيم فيها بثقة في النفس وباعتزاز بالماضي. فهي ليست متوحّشة في مظهرها كما هو الحال في زاغرب ولا متربّصة بزوارها مثل باريس، بل هي خاشعة وصادقة في حبّها وكرهها إن وجد. مرنة في تواصلها وغيورة على أبنائها أكثر من غيرتها على نفسها. سراييفو تحيا على ذكرى أسماء من مرّ بها، وكرونولوجيا العبث الإنساني الذي عاشته وما تزال تعيشه إلى اليوم. هي نقطة الفصل بين الدهشة و الارتباك.

في صباح اليوم الموالي، خرجت من الفندق حوالي الثامنة صباحا. متلهفا للتيه في المدينة. كان المطر قد غسل ليلا وجه سراييفو، وذكّرها بأنها على عتبة الخريف، وأول صورة واجهتني قبالة «طلال»، وخلف سور صغير متهاو، حوالي عشرة قبور مصطفة خلف بعضها بعضا. قبور مسلمين بشواهد بيضاء، كتب عليها اسم الجلالة بالأخضر. قبور ورائحة موت تتوسّط حيا سكنيا، وأمام فندق يسمي نفسه فندقا سياحيا. ولكن، المفاجأة ستندثر تدريجيا لما سندرك، لاحقا، بأن القبور والمقابر الجماعية إنما هي جزء ثابت من المنظر العام للمدينة، ومعلم لا ينفصل عن غيره من معالم أخرى. في عاصمة البوسنة والهرسك الموت والحياة يتجاوران، يتحاوران ويتصالحان في كل لحظة. الموت يعانق الحياة والناس تواصل يومياتها دونما مبالاة أو على الأقل رثاء أو تجديدا للأحزان. وسط حديقة عامة، أمام متر بنك البوسنة الدولي، على طرف نهج الماريشال تيتو (أو الماريشال تيتا بالبوسنية)، وبالقرب من المركز الثقافي الإيراني، مقبرة تضم جثامين الضحايا من الكبار ومئات الأطفال، كتبت أسماؤهم على مجموعة ألواح، تخليدا لذكراهم. وليس بعيدا عنها مسجد علي باشا، حيث يصادفنا على مدخله مربع قبور الشهداء. «غالبيتهم سقوط في فترة حصار سراييفو» أخبرني رجب، وهو نادل في مقهى شعبي. حصار سراييفو يعتبر، لحدّ السّاعة، أطول وأقسى حصار عسكري عرفه تاريخ الإنسانية الحديث، استمر حوالي أربع سنوات، دونما انقطاع (من 4 أفريل 1992 إلى غاية 29 فيفري 1996)، حيث وجدت المدنية نفسها، بعد إعلانها الانفصال عن

يوغسلافيا، تحت رحمة العسكر الصربي. بحسب بعض التقديرات الرسميّة، تجاوز عدد ضحايا الحصار العشرة آلاف ضحية، في فترة كانت فيها سراييفو تتعرض يوميا لمئات القذائف التي استهدفت مقرات مؤسسات حكومية وأخرى مدنية، وانتهى بتدمير شبه كلّي للقطاعات الحيوية في المدينة. وقتها كنت صغيرا، ولم يكن الغناء لسراييفو ولأطفال سراييفو كافيا، كنا نطوف على بعض المحلات نسألهم مساعدات لنرسلها لقوافل إنسانية، كان من المفروض أنها كانت تتجه لأطفال المدينة المُحاصرة. كنا نتضامن مع عالم بعيد عنا، ونحن نعيش وضعا ليس أفضل منهم: قتل وذبح وإرهاب، وترهيب يومي في جزائر كانت تحيا تحت ظلّ عبثيّة غير مسبوقة. «الناس كانوا يدفنون ضحاياهم في أقرب مكان إليهم. لا يجازفون بالابتعاد، خوفا من رصاصات العدو» يضيف رجب. وظلّ رفات الضحايا في مكانه ولم ينقل بعد الحرب إلى مكان آخر، وهكذا صارت سراييفو، في ظرف أربع سنوات، مقبرة جماعية مفتوحة على العالم، واستمرّ الوضع إلى الآن. ورغم سوداوية الصورة في رمزيتها، لكن الزائر لا يستشعر رهبة مثل تلك التي تسري في الجسد في زيارة مقابر أخرى. كانت الشواهد تنتشر وتصطف في منظر، من كثرة تكرارها، في المنطقة الواحدة، صارت مشهدا عاديا. فالصخب اليومي وخلوة الميت يتلاصقان جنبا إلى جنب. وفي واحدة من السّهرات، في حدود الثامنة مساء، نصب مقهى، وسط البلد، يقع قبالة مقبرة جماعية، شاشة عملاقة، لمشاهدة مباراة في كرة القدم مصيرية، جمعت بين البوسنة وسلوفاكيا، في إطار تصفيات

كأس العالم 2014. ربع ساعة قبل بداية المباراة كان الجو العام ملونا بحالة من الفرح الممزوج ببعض الهستيريا. كان الفاصل بين المقبرة واحتفالات ما قبل المباراة لا يتجاوز أكثر من عشرة أمتار. في التسعين دقيقة من عمر المباراة تحول المشهد إلى ساحة كبيرة من الأهازيج والانفعالات الوطنية، ومع نهاية المباراة وفوز البوسنة واقترابها من التأهل إلى مونديال البرازيل كاد الموتى المجاورون أن يصحوا من نومهم، ويشاركوا الأحياء فرحتهم، بشكل أكثر هستيرية مما عرفته الجزائر يوم التأهل في أم درمان عام 2009. خرجت الفتيات والعجائز، واندمج الجميع في رقص وغناء، في الشّارع، حتى الصباح. لفت انتباهي الحضور النسوي الكبير، بدا لي أنهن أكثر اهتماما بالكرة مقارنة بنظيراتهن مثلا في الدول العربية. لكن نور، شابة بوسنية في منتصف الثلاثينات، علّقت ضاحكة: «هن لا يفهمن كثيرا في الكرة. يأتين غالبا لاصطياد رجل. مستفيدين من الجو الحماسي والاحتفالي». لم أستطع أن أميز كلامها إن كان سخريّة أم حقيقة، لكن المهم أن كلّ امرأة حضرت كان سيكون لها نصيب من الفرح، إما رجلا أو رقصا أو شعورا بالفخر برؤية البلد يسير نحو أكبر حدث رياضي عالمي للمرّة الأولى في تاريخه. حاولت مرارًا أن أنظر، بعمق، في أعين بنات سراييفو وأتلمس خيط أفكارهنّ. هنّ جميلات ببشرة بيضاء حليبية في الغالب، لكن لا يبدو أنهن سعيدات. فالوضع العام لا يشجّع على العيش الجيد. بحسب أرقام متداولة، فإن نسبة البطالة بين الشباب تتجاوز 60 ٪، والدّراسة لا تشكل بالضرورة طوق نجاح، بسبب رفض المؤسسات الرسمية المحلية

والدولية الاعتراف بشهادات بعض الجامعات والمعاهد الخاصة المنتشرة في المدينة. الهجرة إلى دول أوروبا الغربية، هو حلم مشترك كما يقول سالم، وهو فلسطيني خمسيني، يعمل منذ أكثر من عشر سنوات في هيئة الإغاثة الكويتية في سراييفو. «أين ذهبت الملايين التي أرسلت من دول عربية لإعادة بناء البوسنة؟» سألت سالم. «أين ذهبت الكيلومترات الطويلة التي قطعتها رفقة زملاء لي طلبا لمساعدة أطفال البوسنة سنوات المدرسة الإبتدائية؟» سألت نفسي. «صحيح أن الملايير أرسلت. لكن الغرض منها كان في الغالب بناء مساجد وليس مشاريع تنموية» أجاب. مسلمون يبنون قبابا ومنارات ومسيحيون يردون عليهم بتشييد ما استطاعوا من كنائس، والصدام العرقي يترسخ سنة بعد أخرى. فبين مسجد غازي خسرو بيك وكاتدرائية قلب المسيح مسافة بضعة أمتار، لا أكثر. وبالقرب منهما متحف يهود البوسنة، وهو متحف صغير يضم خصوصا مخطوطات وصورا قديمة تؤرخ للوجود اليهودي في المنطقة. ثلاث ديانات سماوية تجتمع تحت سماء مدينة واحدة، في سلام ظاهري وتشنج داخلي. في الشارع، في الحارات والطرقات الرئيسية، لا يكاد يظهر الاختلاف العرقي، فالحجاب قليل الانتشار بين النساء والتطرف في إظهار رموز مسيحية غير منتشر، والنقطة المشتركة الأكبر التي تجمع الشباب والكهول والنساء والرجال هي علامات الحرب الأخيرة، التي يصعب إخفاؤها على العيان. المدينة مسكونة بفظاعة ماضيها القريب وتنام وتصحو على كوابيس فاجعة التسعينات، وتتطهّر من خوفها بالدعاء في المساجد التي تصادفنا في كل حي

تقريبا. ففي زيارة إلى مسجد سلطان فاتحوف (أو الشيخ المغاربي)، وقت صلاة الظهر، واجهنا التاريخ بكل عراقته. المسجد بني أيام الباي عيسى، منتصف القرن الخامس عشر ميلادي، ليدمر بسبب حريق، ويعاد بناؤه عام 1766، وهو مسجد يتكوّن من قاعة صلاة واحدة، بشكل مستطيل، وقبة ومنارة، أسقطت أيام الحرب عام 1992، وأعيد بناؤها عام 2000. وكما عليه الحال في زاغرب، الصلاة تجمع الرجال وخلفهم نساء، دونما عازل ولا حجاب، يدخلون من باب واحد، ويشتركون في رفّ الأحذية، في حالة من التنظيم الخلاّق، دونما تجاوزات أو إشكالات، فحالة التكافل والتسامح التي خلفتها سنوات الحرب تجذرت بعمق في المجتمع البوسني الحالي، الجميع كان يعيش دراما مشتركة، والجميع يتفهم محنة الآخر وألمه، وهو أمر عزز ويعزز التواصل الاجتماعي بين مسلمي البلد الواحد.

خلف أسوار وسط المدينة تبدأ معالم الوجه الآخر من سراييفو. حياة بسيطة، فقيرة، صعبة، تعتمد على الزاد القليل للاستمرار في الوجود. وراء الوجه السياحي المنمّق للمركز، يغرق الهامش في تناقضات معيشية عميقة، فمتوسط دخل الفرد لا يتجاوز ثلاثمائة أورو، وفرص الشغل والتفكير في تأسيس حياة مستقلة مستقرة للشباب هي طموحات غير متوفرة، وإمكانيات التغيير ليست متاحة، هكذا تغطي سراييفو خجلها من فقرها بصور سياحية لامعة، تأسر زوارها القادمين من بعيد، والذين لا يعرفون

عنها الكثير. في الظلّ، تتسع أحياء غير مهيأة، وطرقات غير معبدة، وأعين تترقب غدا أفضل طال وصوله. شباب يفكر في عشيقة أجنبية تمنحه فرصة الهجرة وتسوية الوضعية القانونية، بعيدا عن الحي والعائلة الكبيرة، في سويسرا أو فرنسا أو بريطانيا أو أميركا أو غيرها، ونسوة يجلسن ويترقبن عودة أحبة سابقين وبني عمومة هجروا يوما، وسيعودون ربما بحثا عن زوجة ثانية «صالحة». حياة مضطربة تحكمها الاحتمالات أكثر من اليقينيات، يسودها الانتظار وعبثية الرجاء، تزداد فيها الطبقات الاجتماعية السفلى حرمانا، مقابل تواصل حصول أصحاب العلاقات والمصالح على امتيازات قصوى. وضع ميؤوس منه لا يختلف عن الواقع العربي، فأحيانا كثيرة تبدو البوسنة الأوروبية جغرافيا قطعة عربية، بفوضاها وضبابية الطموح فيها، تقاوم سوداوية الحال بالحلم وباستحضار مقاطع مفصولة من ماض بعيد جدا، يوم كانت تعتبر جنة العثمانيين الخلفيّة، وموطنا شفافا ومتسامحا لليهود الفارين من الأندلس. تواسي خيبتها الحاضرة بزراعة الأمنيات والإكثار من الدعوات، بنهاية عصر القحط وعودة النبي المُخلّص، الذي سينفض عنها غبار الظلم و اللاأمان، ويحررها من عقدتي الدونية والتمزّق اللتين تؤرقاها من زمان، فهي ما تزال تعيش تفتتا داخليا، البوسنة والهرسك كما نعرفها هي مقسّمة إلى ثلاث كيانات إقليمية مختلفة: فيدرالية البوسنة والهرسك، عاصمتها سراييفو، جمهورية صرب البوسنة، عاصمتها بونيا لوكا، وأخيرا إقليم برشكو. تقسيمات لم ترض كثيرا مسلمي البلد (البوشناق، ذوو الغالبية) تمخضت عن اتفاقيات دايتون (1995)

لإنهاء الحرب الإثنية في البلد، اعتبروها غير منصفة بحكم أنها تقسم الأرض تقريبا بالمساواة مع طرف ثان أقل منهم تعددا.

في خضم تسكعي وتيهي، وبشكل سريع، فكرت وقررت فجأة، أن أزور مدينة موستار التاريخية، التي سمعت عنها كثيرا في السّابق، والتي لا تبعد عن سراييفو بأكثر من مائة وثلاثين كيلومترا جنوبا، باتجاه الساحل الأدرياتيكي. لم تكن المدينة نفسها ضمن مخطط الرحلة، لكنها فرضت نفسها بشكل مباغت، فاسمها كان يتردد صداه عميقا في ذهني، ولم تكن تبدو غريبة عن خزانة ذكرياتي عن البوسنة و الهرسك، المستوحاة من الجرائد والتلفزيون. وبعد حوالي الساعة و النصف من السير بالسيارة، وصلت وجهتي، مرورا ببعض البلدات الصغيرة، مثل لوكي، برادينا، جابلانيتسا وبوتوسي. بلدات تتشابه فيما بينها في المعالم، تبدو ريفية، وتعتمد بالدرجة الأولى على خيرات الأرض، عدا موستار، التي تعتمد أيضا على عاملي التاريخ والسياحة. لما وصلت كانت السماء قد صارت رمادية، تنبئ بمطر غزير. ركنت السيارة في ساحة واسعة، كانت تبدو كما لو أنها محطة مسافرين سابقة، لا إشارات ولا لافتات فيها، ولا أيّ لوحة إرشادية تدل الزّائر على جهة المدينة العتيقة، المصنّفة ضمن التراث العالمي لليونيسكو. توجب عليّ كالعادة أن أسأل المارة، وأسأل ثانية، وأكرر السؤال لأجد خطا يدلني إلى مقصدي الأهم: جسر موستار التاريخي، أو شتاري موستار بالبوسنية (الجسر العتيق)، والذي يعود تاريخ إنجازه إلى القرن السادس

عشر (1565)، كمعبر تجاري، للربط بين طرفي المدينة، فوق نهر نيريتفا، بناه المعماري العثماني معمار خير الدين، تلميذ المعماري العثماني الشهير معمار سنان أغا، ويتشكل من نصف قوس واحد، بشكل محدب، بطول 27 مترا وعرض 29 مترا. قاوم الجسر نفسه الفيضانات والسيول وكل العوامل الطبيعية المختلفة، ولم ينهر سوى أيام حرب البلقان، عام 1993، تحت قصف الجيش الكرواتي (كرواتيا لا تبعد عن المدينة سوى بخمسين كيلومترا) لقطع الطريق أمام الجيش الصربو- بوسني، وأُعيد بناؤه مجددا وفق النمط القديم تماما، وافتتح أمام الزوار عام 2004. وللوصول إليه لا بد من العبور عبر بعض الحارات الصغيرة، التي تأخذ طابعا سياحيا، بمحلات التذكارات والأقمصة، والمطاعم و المقاهي الصغيرة، ثم وجدت زقاقا طويلا، وجهتني فيه زحمة كبيرة من السياح، الذين جاؤوا من دول مختلفة، لالتقاط صور من أعلى الجسر، أو أسفله. هو يشبه في جاذبيته جسر قنطرة لحبال في قسنطينة، مع فارق زمني، واهتمام بوسني يفوق اهتمام الجزائر بمعالمها. وعدا الطابع السياحي وجدت شبابا من المدينة يأتون هناك للغطس من أعلى الجسر إلى مياه النهر، يرمون أنفسهم من أعلى إلى أسفل، على ارتفاع حوالي ثلاثين مترا، في مشاهد تلقى فضول السيّاح ولا تضيعها كاميراتهم وآلات تصويرهم. والشيء اللافت للانتباه هناك أيضا تواجد قوات حفظ السلام الدولية، التي لم تنته مهمتها رغم انتهاء الحرب، فشبح عودة الصدامات ما يزال يخيم على المنطقة، والفصل بين الجماعات المتقاتلة سابقا ما يزال أولوية يراهن عليها المجتمع الدولي. كريستينا

الهنغارية، مجندة تبلغ من العمر الخامسة و الثلاثين، صادفناها هناك، وهي تقوم بمهامها، بالطواف بين أحياء المدينة القديمة، والسير بين طرفي الجسر، ضمن ما يسمى (Eufor Althea)، وهي قوات تابعة للاتحاد الأوروبي، تعمل في المدينة منذ عام 2004، بعد نهاية مهمة قوات حلف شمال الأطلسي. ونجد وحدات من التنظيم العسكري نفسه في مدينتي توزلا وبانيا لوكا الشماليتين، حيث تبقى احتمالات عودة اللاأمان قائمة. لم يتطلب الأمر أكثر من ساعة لأتمشى وأزور الجسر الأشهر في البلقان، وأتسلل بخفة من بين الأجساد المتزاحمة، عائدا إلى الموقف النائي حيث ركنت السيارة، وقد بدأ المطر يهطل بغزارة، والطرقات تتحول إلى مستنقعات يكاد يستحيل فيها التقدم خطوة، خصوصا مع اشتداد الزحمة، ارتفاع أصوات منبهات السيارات، والصراخ، الذي لم أفهمه (ربما كان يحوي عبارات بذيئة). اضطررت للتوقف بسبب صعوبة السير ولجأت راكضا إلى مقهى، مختبئا من المطر لممارسة هوايتي في مشاهدة الناس وهم مرتبكون تحت عاصفة السماء الماطرة، وأشم رائحة الأرض المبتلة، رائحة الطفولة، التي أعادتني إلى نوستالجيا بعيدة، إلى سنوات موشومة بحرمان، لما كنا صبية نجري تحت المطر، احتفاء وأملا.

طلبت فنجان قهوة أوّل، ثم فنجانا ثانيا بعد نصف ساعة ، ولم يتوقف المطر، بل ازداد حدّة، تخيّلت لو أنني واصلت الطريق ولم أتوقف. ربما كنت سأجد نفسي عالقا في بركة ضخمة، وتائها، مضيّعا وجهتي إلى

سراييفو. امتلأ المقهى تدريجيا بالناس، من رجال ونساء وشباب، كلّهم جاؤوا للاحتماء من السماء، بعد حوالي الساعة ونصف الساعة، خفّت حدّة التّساقط، وركضت مجددًا خارجا صوب السيارة، أدرت المحرك واتجهت شمالا، وفي بالي شيء واحد: طبق شباتشيشي في باشتارجيا يغني بطني من الجوع.

اليوم أشعر أنني تركت جزءا من قلبي في سراييفو. فقد وجدت فيها ما لم أجده في مدن أخرى: سكينة ورغبة في التأمل العميق. مدينة تشبهني وأشبهها إلى حدّ التماهي، كسولة مثلي، ظريفة وفقيرة وفخورة بنفسها. لحاراتها ونسائها ومقاهيها روائح قوية ما تزال تدغدغ أنفي، فهي سراييفو التي تغازل زائرها من لحظة المقابلة الأولى، تميل إليه وتغريه بما استطاعت إليه سبيلا كي يظلّ فيها ولا يتركها، وإن غادرها فإنما يغادرها بنية العودة إليها. كل الحكايات تنصهر في يومياتها، والبلقان لا يمكن له أن يكون بعراقة وتاريخ وصلابة حاضر دون مدينة باسمة مثلها.

سربرنيتسا

غيمة واحدة في وداع الفاجعة

في سربرنيتسا حكايات وأغانٍ تولد كل صباح.. طرقات وأزقة البلدة الصغيرة، حدائقها وربواتها، أطفالها ونساؤها، لم ينسوا فظاعة صيف 1995، ومازالوا يستحضرون ذكريات الراحلين وأرواحهم بمناسبة وبغير مناسبة.. منارة المسجد السنّي وجرس الكنيسة الأرثوذوكسية المتقابلين لم يتصالح أحدهما مع الآخر، لكنهما لم يمنعا الأهالي من تنفس لذّة العيش، وخوض تجارب حياتيّة جديدة.

في الطريق، قادما إليها من سراييفو، وقبل أن أصلها، ذات سبت بارد ومشمس في آن، صور كثيرة تزاحمت في ذهني، عن لون البلدة ومزاجها وشكل الحياة فيها، عن ناسها وشبابها ونسائها، صور وأسئلة سيجد بعض منها أجوبة لاحقا وبعض آخر سيبقى معلقا.

في كافيتيريا المركز الشبابي (الواقع على مدخل البلدة)، ضعيفة الإضاءة، أخذت سلمى (29 سنة) تدخّن سيجارة تلو الأخرى، وتحدثني عن شغفها بالسينما الإيطالية، بأفلام فريديريكو فيليني، فرانكو بروزاتي، وجياني أميليو. كانت تتحدَّث بلغة إنجليزية مرتبكة، ولكنة بوسنية خالصة، تمزج بين لغتين في طبق واحد، تمضغ كلماتها وتلفظها بشكل متسارع.. لكنَّ تواصلنا كان سهلاً. لم تحتج لغة عالمة لشرح ولعها، وعلاقتها الحميمة بالفن السابع.. كانت تتحدَّث بلهفة عن أفلام شاهدتها، وعن سيناريوهات أعجبتها. عيناها الخضراوان كانتا تشعّان كلما استنشقت سيجارتها، أو ذكرت اسما من أسماء مخرجين أو ممثلين وممثلات حُفِرت تجاربهم في ذاكرتها.. بعد حوالي ربع ساعة، قامت، بحركة سريعة، من كرسيها، أطفأت سيجارتها، واستأذنت بالانصراف، بسبب انشغالها بتحضير عروض مهرجان سربرنيتسا السينمائي (SREBRENA TRAKA)، في دورته السابعة، وخرجت أنا صوب مقهى، بِنِيّة العودة لاحقاً لمشاهدة سلسلة الأفلام القصيرة المشاركة.

بلغني صوت آذان صلاة العصر مُتقطِّعاً، كما لو أنه يأتي من مكان بعيد. كانت الطرقات شبه خالية، إلا من بعض الكلاب الضالّة، التي تتجوَّل بكسل وخمول. الرتابة سمة من سمات البلدة، رتابة ممزوجة بقلق وترقُّب وضبابية المستقبل.. في (VENERA) وجدت نفسي الزبون

الوحيد، فيوم السبت ويكاند، وبحسب النادل العشريني، فإن الناس يستغلون الفرصة للذهاب إلى بعض القرى والمدن المجاورة، لقضاء بعض حاجياتهم وزيارة أهاليهم، مثل بلدة براتوناتس (التي تبعد حوالي عشرة كيلومترات). طلبت عصير ليمون وجلست أتصفح رواية «المسيح وتيتو» للكاتب البوسني فيليبور شوليتش، والتي يعود فيها إلى ذكريات الطفولة، بين عامَيْ 1970 و1985، تحت حكم يوغسلافيا، وفترة انقسام والديه في البيت بين التعلُّق بصورة المسيح وصورة الماريشال تيتو. حينها كان شوليتش يحلم بأن يصير لاعب كرة قدم برازيلياً، وشخصيتاه المفضلتان كانتا اللاعب الشهير بيلي، وتارزان.. في النهاية، لم يلعب فيليبور الكرة، ولم يمارس هواياته المفضَّلة، ووجد نفسه، عام 1991، جندياً في جبهة حرب البلقان، قبل أن يفرّ من الجيش، ويتعرَّض للسجن، ثم يفرّ ثانية من الزنزانة ومن جحيم الموت، ويلجأ إلى فرنسا، ويكتب سلسلة روايات تؤرِّخ للفترة الدمويّة التي عرفتها بلاده. وكتب ساخرًا من سنوات الطفولة الصعبة: «كنا لمّا نأكل جيدا نقول هذا من فضل الكاثوليكيّة، ولما لا نجد ما نأكل، ولا نبالي ونغني ونرقص، فذلك من فضل الشيوعيّة». كنت أقرأ سخرية فيليبور شوليتش من الحقبة اليوغسلافية، ومسابقات الشعر التي كانت تدور موضوعاتها حول مديح تيتو، والرحلات المدرسية التي كانت تنظّم إلى مسقط رأس «الزعيم» (في كرواتيا حالياً)، وأفكر في طلب سلمى باقتراح خمسة أفلام عربية تعرض، السنة الموالية، في مهرجان السينما.

❖ ❖ ❖

سربرنيتسا، ورغم وضعها الصعب اقتصادياً واجتماعياً، ووضعها السياسي غير الثابت (في البلدة نفسها يرفرف علما بلدين مختلفين: البوسنة والهرسك، وصربيا)، فهي تحاول أن تمنح نفسها، من حين إلى آخر، جرعات أمل، بتنظيم مهرجانات دورية في المسرح والسينما والرقص، وورشات فنية، تموّلها خصوصاً بعض السفارات الأوروبية الموجودة في البلد. ولكنّه تمويل جدّ محدود، كما هو الحال بالنسبة إلى المشاريع التنموية، التي تكاد تكون منعدمة. الناس يشتغلون، بالأساس، في خدمة الأرض، أو في بعض النشاطات الخدماتية البسيطة. «الشباب يبحثون عن أفق لهما بعيداً عن سربرنيتسا. في المدن الكبرى مثلاً، يحلمون بطريق الهجرة إلى واحدة من دول الاتحاد الأوروبي، مثل النمسا وألمانيا. لكن الهجرة ليست أمراً سهلاً، تأشيرات دخول الدول الأوروبية صعب الحصول عليها» حدثني سليم (38 سنة)، تقني في المركز الشبابي، فرص الشغل عملة جدّ نادرة، وروتينية الحياة هي دافع من دوافع البحث عن سبيل للخروج من نفق الركود المحلّي، بحثاً عن حياة أفضل وأرحب. «مع ذلك، غالبية المهاجرين يفضّلون العودة، في العطل، أو بعد نهاية فترات عملهم في الخارج.. سربرنيتسا هي مسقط الرأس ونهاية المشوار» يضيف سليم، بشكل يتنافى مع مثل شعبي سائد هناك يقول: «القرية التي ولدت فيها لا تهجرها، وإن هجرتها فلا تعد إليها».. كآبة الوجه العام لم تمنع من ملاحظة بعض الاستثناءات؛ فعلى

الطريق من وسط البلدة إلى فندق ميسيريا (الفندق الأهم، وجهة الوفود الأجنبية) صادفت بعض الفيلات والمنازل الفخمة، وهي ممتلكات لبعض العائلات المهاجرة، خصوصاً، عائلات تقيم وتعمل في دول أوروبا الغربية، تقف قبالة لها بيوت ما تزال تحمل آثار الحرب.. أسقف متهاوية وآثار طلقات نارية ومدفعية على الجدران

بالقرب من محل (ZVORNIĈNCA) التجاري، وموقف سيارات الأجرة الوحيد، افتتح أمير (37 سنة) محلاً صغيراً للأكل السّريع. محلّ جدّ بسيط، لا يتوافر على أكثر من أربع طاولات، يقدم خصوصاً أكلاً تركياً، مثل الكباب والبقلاوة وغيرها. كنت أمرّ عليه ليس للأكل فقط، بل للثرثرة عن يوميات أهالي سربرنيتسا. أخبرني أمير أنه افتتح «مطعمه» المتواضع قبل حوالي ثلاث سنوات، ليعيل نفسه وعائلته، فقد تزوَّج ثم طلق مرتين متتاليتين، ثم تزوج مرّة ثالثة، وله ستة أبناء. وهو يحاول مقاومة انسداد الأفق بحلم إنجاز مشروع تجاري كبير.. كبير وكفى لا يعرف ماهيته.. يوفر له مستقبلاً مريحاً له ولعائلته (مريح وكفى!). لم يكن يتحدث كثيراً في السياسة، لكنه لم يخفِ امتعاضه من الوضع العام للبلدة التي عانت وما تزال تعاني الأمرّين. «مسلمون ومسيحيون، صرب وبوسنيون يعيشون معاً منذ قرون، وليس فقط منذ سنوات. ولكن، مجازر عام 1995، شكلت جدار فصل بيننا وبينهم. حينها العالم كله تخلّى عنّا، وبقي يتفرج على دماء

أهالينا التي سالتْ بغزارة» يتحسّر. في سربرنيتسا، كل بيت صربي يعلّق علم بلده، محاولة منه لإقناع الآخرين أن البلدة ما تزال صربية، وكل بيت بوسني مسلم يردّ بالمثل. الكنيسة الأرثوذكسية الواقعة على ربوة، هي أيضاً تعلّق علم صربيا على واجهتها الخارجية، ولا تعترف سوى بسلطة بلغراد، كما لو أن الحرب لم تنتهِ.. «أن تزور سربرنيتسا، فعليك أن تبدأ من المقبرة حيث دفنت جثامين ضحايا المجزرة التي راح ضحيتها غالبية سكان البلدة وبلدة بوتوشاري القريبة» اقترح أمير. المقبرة هي أول وأكبر وأوضح مَعْلَم يصادف الزائر على مدخل سربرنيتسا. تجنَّبت التوقُّف عندها ودخولها في بداية الزيارة، رغبة منّي في ملامسة وجه الحياة، قبل العودة إلى أوجاع الماضي.. بعد كأسيّ شاي، وأربعة سجائر «درينا» (السجائر المحلية)، ودردشة قصيرة حول منتخب البوسنة لكرة القدم، توجَّهت إلى المقبرة، ولم يكن يدور في ذهني سوى صور مشاهد أفلام وثائقية شاهدتها سلفاً عن بشاعة ما وقع شهر جويلية 1995، أيام ما عُرِف بحرب البوسنة.

على مدخل المقبرة لافتة كُتب عليها: «المقبرة المخلّدة لضحايا الإبادة الجماعيّة التي وقعت في سربرنيتسا وبوتوشاري عام 1995». بالخطو ثلاث خطوات نحو الأمام، بلغني صوت المقرئ أحمد العجمي وهو يرتّل سورة مريم. بالقرب من مكبّر الصوت حيث تتوالى، باستمرار، أدعية وسور قرآنية، رجلان يسجدان في صلاتهما. ربما كانا هناك لقراءة الفاتحة على واحد

من القبور. وخلفهما نصب رخامي، بارتفاع متر ونصف المتر، بشكل نصف دائري، وبطول حوالي 200 متر، كتبت عليه أسماء حوالي 6000 ضحية من ضحايا جيش صرب البوسنة (الذي كان يقوده راتكو ملاديتش، الملقَّب بجزار البلقان)، ثم نرى، على مدى البصر قبوراً.. قبوراً.. قبوراً.. لا شيء آخر غير القبور، غير رائحة الموت، بقايا دموع، وأشباح الآخرة.. شواهد قبور بيضاء وتربة سوداء.. قبور تصطفّ بعضها خلف البعض الآخر، عمودياً وأفقياً وطولياً.. تحمل أسماء رفات أصحابها.. بعضهم شيوخ والبعض آخر أطفال ورُضَّع.. وكثير من الرفات ما يزال مجهولاً بلا اسم.. مشهد قد يصيب أصحاب القلوب الضعيفة بالصدمة أو الإغماء.. سألت نفسي: «كم يلزمني من الوقت لأقرأ الفاتحة على كل قبر من القبور؟». ربما شهراً أو شهرين، أو ربما سأنهار قبل أن أكمل نصف العدد.. وحده مشهد القبور كان كافياً لتخيُّل حجم الفاجعة، ودمويّة المجزرة.. فجأة طفت على مخيلتي مشاهد سنوات الإرهاب في الجزائر.. مجازر بن طلحة و سيدي موسى والرايس، وغيرها، سنوات التسعينات.. الجزائر والبوسنة اتفقتا على فترة واحدة لعيش تراجيديا مشتركة.. وسط القبور نصب كُتِب عليه دعاء باللغات الثلاث: العربية والبوسنية والإنجليزية: «بسم الله الرحمن الرحيم. نسألك يا ربنا رحمة في الحزن، وحياة في القصاص، ودعاء في دموع الأمهات في سربرنيتسا، أن لا تعود مرة أخرى. وحَوِّل حالنا إلى أحسن حال. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»

حتى هذه الساعة، ما تزال صربيا ترفض الاعتراف بما حدث في سربرنيتسا، ووصف ما وقع بالإبادة أو بالتطهير العرقي أو تصفية مسلمي البوسنة والهرسك. لكن الشهادات الحيّة، والمصادر المتطابقة، تؤكّد على شيء مشترك: ما حدث هناك شهر جويلية 1995 كان أبشع مجزرة وقعت في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، وصفتها محكمة الجنايات الدولية، في تقاريرها المتكررة بـ«الإبادة».

بحسب الرواية التاريخيّة البوسنية، التي اطّلعت عليها، فإنه قبل ثلاث سنوات من وقوع مجزرة سربرنيتسا، وفي ظلّ الصراع الذي تلي سقوط دولة يوغسلافيا سابقاً، وسعي البوسنة والهرسك للإعلان عن انفصالها كجمهورية مستقلّة (كما فعلت كل من جمهوريتي سلوفينيا وكرواتيا المجاورتين)، قام تنظيم عسكري، ينتمي إلى جناح ما كان يسمى صرب البوسنة، المدعوم لوجيستيكياً ومادياً من بلغراد، ومن الجيش الشعبي اليوغسلافي، بحرق حوالي 300 قرية كانت تحيط بسربرنيتسا، وقتل المئات من مسلمي البوسنة، بمن فيهم الأطفال والنساء. عام 1993، تمّ اعتبار البلدة «منطقة محميّة» من طرف مجلس الأمن، ولكنها كانت ما تزال تحت الحصار الصربي، الذي كان يمنع عنها وصول الغذاء والدواء والمساعدات الدولية. كانت سربرنيتسا وقتها تشبه معسكر اعتقال كبير، والناس يموتون إمّا جوعاً أو بسبب غياب الدواء. بداية 1995، حوالي 500 جندي من عناصر القبعات الزرق الأممية انتشروا في المكان، لحماية

الأهالي، والحدّ من المعارك التي كانت تدور بشكل يومي مع الطرف الصربي. شهر ماي من السنة نفسها، 400 عنصر من القوات الأممية وقعوا رهينة لدى جيش صرب البوسنة، ليتمّ مقايضتهم مقابل وقف قوات حلف الناتو عملياتها الجوية ضد قواعد العسكر الصربي، وفي السابع من جويلية، دخل جيش راتكو ملاديتش سربرنيتسا، مستفيداً من ارتباك قوات حفظ الأمن، وتجنّبها المواجهة المباشرة، ليجد نفسه قبالة مدنيّين عُزّل، حاول البعض منهم الفرار نحو ثكنة القوات الدولية طلباً للحماية، والبعض الآخر صوب الغابات المجاورة، اختباء من بطش الصرب، والبقية دفعت فاتورة المجزرة الأبشع في تاريخ البلقان.

بعد حوالي العشرين سنة من المجزرة، فإن الارتدادات لم تنته.

بعد زيارة المقبرة وقراءة الفاتحة على أرواح الأبرياء، توجَّهت إلى مقهى علي أو عليش (بالبوسنية)، الواقع قبالة المركز الثقافي والمكتب المصرفي الوحيدين الموجودين هناك. كان الوقت عصراً، وبعض الجرائد اليومية وصلت لتوِّها. الحدث الأبرز الذي طغى على صفحاتها هو موضوع الحكم على قائد الشرطة الصربو– بوسنية الأسبق، الجنرال غوران ساريك، بأربعة عشر عاماً سجناً، بتهمة تورُّطه في تنفيذ عمليات إبادة لمسلمين في سراييفو وسربرينتسا. الجنرال نفسه لم يُلق القبض عليه سوى عام 2011، بعد إحالته إلى التقاعد، وقضيته حرّكت ردود فعل صربية

مضادّة، وطالب البعض منهم بمتابعة بوسنيين مسلمين قاموا، من جهتهم، بأفعال غير إنسانية في حقّ صرب أيام الحرب.

شباب البلدة لم ينسوا ما جرى، ولم ينسوا الأرواح التي أُزِهقت بلا سبب.. يستشعرون حقيقة كونهم ضحية، ويدركون أنهم الحلقة الأضعف في مشهد الخلافات السياسية.. يستحضرون مرارة ما حصل باستمرار.. ليلى (25 سنة، طالبة) تختصر المشهد بالقول: «في السابق، كان يحصل، من حين إلى آخر، أن يتمّ عقد قران بين عائلة بوسنية وأخرى صربية. أما اليوم، فلا هم منا ولا نحن منهم!».. المسافة بين سربرنيتسا والحدود الصربية لا تتجاوز، على الأرض، العشرين كيلومتراً، ولكن، في الواقع، هي مسافة عقائدية وسياسية تتباعد يوما بعد الآخر.. سربرنيتسا لا تريد أن تطوي الصفحة، وبلغراد لا تريد أن تعترف بما وقع، وشبح صدامات جديدة ما يزال يخيِّم على المنطقة.

شارعان رئيسيان متوازيان بطول خمسمائة متر، ساحة مركزية صغيرة، مسجد وكنيسة، مركز شبابي وآخر ثقافي، فندقان صغيران ومرقد بلا زبائن، مدرسة و.. حياة صعبة. هذه هي تضاريس البلدة الصغيرة التي شغلت الرأي العام الدولي لأكثر من خمس سنوات متتالية، واستباحتها آلة الموت، ونسيها أهلها وأقرب المقرَّبين إليها.. «نحتاج مساعدات من

إخواننا المسلمين» يشتكي حسن. «الألمان والإسبان والإيطاليون يبنون مراكز شبابية، ويدعمون نشاطات، والمسلمون العرب أين هم؟» يضيف. لم أمتلك إجابة مقنعة لسؤاله.. العرب أيضاً منشغلون بتداعيات الربيع العربي، وفظاعة ما يجري في قرى وبلدات سورية لا يختلف عمّا جرى هناك.. ومثلما تخلّى المجتمع الدولي عن سربرنيتسا، فقد تخلى عن مدنيّي وضحايا نظام الأسد في سوريا..

ما أشبه سربرنيتسا بقرى ومدن سورية الصّامدة..!

ثلاثة أيام قضيتها في سربرنيتسا، أتسكّع في الأزقّة والطرقات نفسها، أشمّ الروائح نفسها، أشرب قهوة صباحية بالطعم نفسه، أرى وجوها تتكرَّر، صار وجهي مألوفاً لها (نهاد، العاملة في محطة البنزين، موظفة المكتب المصرفي الخمسينية، سليم...)، أسمع أصواتاً ووشوشات متشابهة. مساء اليوم الأخير، مَرَّ من أمامي، بالقرب من مقهى (VENERA) ثلاث فتيات من المتطوِّعات في تنظيم مهرجان سربرنيتسا السينمائي، تبادلنا التحية (DOBRE VEČER)، بمعنى (مساء الخير)، ورافقتهن إلى المركز الثقافي، لمتابعة آخر عروض المهرجان. التقيت هناك سلمى مجدداً، وسألتني عن انطباعي حول البلدة. أجبتها بابتسامة بلهاء مرفقة بـ (IT'S OK)، وأنا أقول في سرّي: «إلى متى ستظل سربرنيتسا مصلوبة على عمود الانتظار؟».. قبل دخول قاعة العروض، وهي قاعة صغيرة، تعرض فيها الأفلام بتقنية عارض الفيديو (VIDEO PROJECTOR)، ولا

تتوافر على التجهيزات الضرورية، شاهدت الفتيات المتطوِّعات اللواتي التقيت بهن قبلاً يرقصن بفرح، في زاوية معتمة من بهو المركز، رقصة الفالس.. يرقصن، ويدعين رفيقات لهن للرقص والاحتفال.. لا لسبب معيَّن، إنما فقط احتفالاً بالحياة.

بلغراد

إشتراكيّ يُصفّق.. ورأسمالي يرقص

أغادر سربرنيتسا صباح يوم مغيّم، وروتيني، أُثري خزان السيارة بنزينا، أحيّي عاملة محطة الوقود، واتجه نحو الشمال الشرقي، نحو حدود قريبة، وعوالم إيديولوجية مختلفة، ومتباعدة. وكالعادة، ووفاء للسيرة البلقانية، لم أجد لافتات ولا لوحات إرشادية تدلني على وجهتي نحو حدود صربيا، أو إلى المعبر الفاصل بين البلدين، المدوّن على الخارطة، المسمى: ليوبوفيا. اضطررت للتوقف مرّتين، مرة أولى أمام مخبرة ومرة ثانية أمام محطة وقود أخرى لأسأل عن وجهتي، والتي لم تكن تبعد عن سربرنيتسا بأكثر من عشرين كيلومترا، لكن السبل تعددت وتبعثرت، وخشيت أن أجد نفسي سائرا على طريق خاطئة.

وصلت النقطة الحدوديّة وأنا أتمتم أدعية، سائلا الله أن تمر الأمور على سلام. لست أعرف لماذا شعرت بنقص الثقة وفكرت في إمكانية منعي من دخول صربيا. كانت المرة الأولى التي شعرت فيها أن العبور لن يكون سهلا، فصربيا، وعلى عكس الدول الثلاث السابقة، اضطررت لطلب تأشيرة قبل الذهاب إليها، تأشيرة قصيرة المدى: لستة أيام فقط، طلبتها من سفارة البلد نفسه في ليوبليانا. لم تكن عملية صعبة بحكم العلاقات الدبلوماسية الجيدة التي تحكم صربيا والجزائر الرسميتين، فهما بلدان صديقان جدا، ويقتسمان حنينا مضاعفا لأيام يوغسلافيا الوردية. مسؤولو صربيا يزورون باستمرار الجزائر، ونظراؤهم في الجزائر يبادلونهم المحبة والمجاملة بتبني مواقف تخدم العلاقات الثنائية، فالجزائر مثلا ترفض الاعتراف باستقلال جمهورية كوسوفو، التي تعترف بها أكثر من مئة دولة عضو في هيئة الأمم المتحدة (من بينها دول عربية مثل مصر، الإمارات العربية المتحدة، الأردن، قطر، اليمن وغيرها)، وبضعة أسابيع قبل وصولي إلى بلغراد، كانت المدينة نفسها قد احتضنت، دونما مناسبة معينة، أسبوعا ثقافيا جزائريا، عرف حضورا وزاريا مهما. بالتالي، نظريًا، من المفترض ألا يشعر الجزائري بعداء من الطرف الصربي، وهو ما لاحظته في سفارة البلد بليوبليانا، حيث لم يتطلب الأمر أكثر من ساعتين، لاستلام التأشيرة، ولكن على المعبر الحدودي شعرت، فجأة، كما لو أن الأمور لن تسير على ما يرام.

لا ضمانات بالفرح، ولكن لا مانع من العيش والمشي والركض والتفاؤل بغد أقل سوداوية وأكثر إنسانية.

وأنا أدخل صربيا، تذكرت مجددا سربرينيتسا الهادئة، حيث لامست خوفا ممتدا في عيون الناس، قلقا في ملامح أطفال ومراهقين يمنعون أنفسهم الحق في الحلم، ولا يرجون سوى نهاية الكابوس الدّامي بأيّ طريقة، يتمنون ولا يتساءلون عن سبل تحقق الأمنيات، المهم أن تحصل معجزة، صغيرة كانت أو كبيرة، تخرجهم من دائرة التاريخ المحظور، الذي فرض عليهم غصبا، وتعيد بعثهم في دوامة الحياة العادية. المتسكع في شوارع البلدة الصغيرة يشعر كما لو أنها ملّت انتظار التغيير، لا شيء فيها تغير منذ يوم الفاجعة، وتكرار اليوميات يذكرها بألم ليالي صيف 1995 الطويلة. سربرينيسا اليوم لم تنزع عن نفسها رداء الحداد، كما لو أنها امرأة منبوذة، ولا رثاء لها سوى صلوات المؤمنين ورضاها بالقدر وقناعتها بأن ربّ السماوات سيعيد لها بياضا ضاع منها واعتقدت أنه أبدا لن يعود.

انطفأ فلاش باك الذكريات وأنا أقف أمام نقطة التفتيش الحدودية. أطل عليّ الضابط الصربي برأسه، وسمعت صوت موسيقى خافتة يصعد من نافذة مكتبه الخشبي الصّغير. بدا لي كما لو أنه كان يشعر بملل، فقد كنت لحظتها العابر الوحيد لحدود البلدين، لا أحد أمامي ولا أحد خلفي، كنت وحيدا في سفري بين ضفتين متنافرتين. طلب مني جواز السفر، قلّبه بين يديه، نظر إلى التأشيرة، تأكد من التاريخ المُدوّن فيها ثم شرع في

الأسئلة: «لماذا جئت من البوسنة؟»، «ماذا كنت تفعل هناك؟»، «كم يوما قضيت هناك؟»، كان شرر يتطاير من عينيه، علامات تعجّب تطفو على محيّاه. توجّب عليّ أن أشرح له كل القصة، ومن البداية، وبأنني جئت فقط في رحلة إلى البلقان، وليست لديّ نوايا سياسية ولا انتماءات، وكان يمكنني بدء الرحلة من صربيا قبل البوسنة، ولكن حصل العكس لأني قدمت إليها من جهة الغرب. صمت ونظر إليّ ثواني، ثم ختم الباسبور وسمح لي بالمرور وما كاد يفعل. ربما هو لم يتعود على حالات مثل حالتي، لكن كان من الأنسب أن يتحلى ببعض اللباقة في التعامل، ففي النهاية لم يكن يوجد سبب واحد لمنعي من زيارة البلد، وضعي كان شرعيا، مطابقا للقانون المتعامل به.

دخلت أخيرًا صربيا، وقابلتني لافتة كبيرة تشير إلى وجهة بلغراد، ووجدت نفسي منخرطا في طريق جبلية، متعرجة، عالية، تطل على غابات كثيفة، طريق تشبه بعض الشيء الطريق الرابط بين مدينتي جيجل وبجاية شرقي الجزائر.

في بلغراد كنت قد حجزت في فندق، ليس مجرّد فندق، بل رمزا من رموز المدينة الاشتراكية: فندق سلافيا، الواقع وسط البلد، والذي تعود نشأته إلى العام 1962، حيث كل الجزئيات فيه توحي للزائر كما لو أنه ما

يزال مقيما في سنوات السبعينات، بدءا من الاستقبال إلى آخر تفصيلات الغرف. يستخدم الفندق نفسه أغراضا قديمة، مثل الهاتف ذي قرص الأرقام المستدير، حنفيات الحمام النحاسيّة القديمة، الأسرة خشبية صغيرة، والتلفاز المتوافر في الغرف من النوع الصغير غير المريح للمشاهدة. الخدمة الحديثة الوحيدة التي يوفرها الفندق، والتي تنفصل عن المشهد الاشتراكي القديم، هي خدمة الإنترنت، مع العلم أن تدفقها ضعيف. كما أن تكاليف الفندق أيضا مرسومة على مقاسات اشتراكية، فرغم موقعه الاستراتيجي، في قلب عاصمة صربيا، فهو يقدّم أسعارا منخفضة نسبيا مقارنة بفنادق حديثة أخرى. «زبائن كثر يأتون هنا ليستعيدوا ذكريات جميلة مضت» تخبرني إنكا، العاملة في مصلحة الحسابات. الفندق يستمد اسمه من اسم الساحة المتواجد فيها: سلافيا، المشابهة لساحة أول ماي في الجزائر العاصمة. تعرف بدوارها الكبير، وهو واحد من أكبر دورات المرور التي رأيتها، وبكونها محطة عبور مختلف خطوط التراموای والحافلات وسيارات التاكسي، ممّا جعل منها ساحة مزدحمة تقريبا طوال أيام الأسبوع، بما في ذلك يوم الأحد.

سلافيا كانت دائما رمزا للتحضّر الشيوعي، ونقطة مركزية لاستقطاب الناس في الانتخابات والتجمعات السياسية، ولكنها، مع النهاية التسعينات، صارت نقيضا لنفسها، ومنطلقا للانفتاح على الغرب و الرأسمالية الأميركية، باحتضانه أول مطعم ماكدونالد في أوروبا الشرقية،

عام 1998، وما يزال، لحد الساعة، محتفظا بالموقع نفسه، ومستقطبا اشتراكيين قدامى ورأسماليين جددا.

في سلافيا دائما، دخلت وكالة البنك الصربي، وطلبت من الموظفة تغيير بعض أوراق ماركا بوسنية (تبقت معي من رحلتي السابقة) مقابل دينار صربي. حدّقت فيّ، تفحّصت وجهي، كما لو أنها لم تفهم. صمتت منتظرا جوابا. «ماركا بوسنية؟» تعجّبت. شعرت كما لو أنني ارتكبت خطأ أو لفظت شتيمة، أحسست كما لو أنني تلميذ صغير في مواجهة أستاذ شرس. «كلا، هي عملة لا نغيّرها» أجابت ببرودة. «كل هذا الوقت لتجيب في النهاية بالنفي! قلت في نفسي. الحرب الباردة بين صربيا والبوسنة والهرسك لم تنته بعد. لاحقا، بعد أربع محاولات متكررة وفاشلة، والمرور على أربعة مكاتب صرافة مختلفة، نجحت أخيرا في تغيير الأوراق النقدية البوسنية في مكتب صرافة خاص وصغير على الطريق، فالبنك الرسمي لا يتعامل بعملة الجيران. لما غيّرت ما كان معي من ماركا لم أنتبه كثيرا لسعر الصرف، فقد بدت لي، من الوهلة الأولى صفقة جيدة، مقابل بعض الوريقات قبضت آلاف الدنانير الصربية، فعملة البلد تعرف تدهورا، لا يختلف كثيرا عن التدهور الذي يعرفه الدينار الجزائري (واحد أورو يساوي ما لا يقل عن مائة وعشرين دينارا صربيا). وبعد أن ملأت جيوبي بما أتيح لي من الدنانير، اتجهت غربا، عبر جادة نيمانيا، صوب المدينة العتيقة (Starigrad)، مرورا بمحطة القطارات والميناء القديم، الواقع

على ضفاف نهر الصافا، وبمحطة بنزين حيث التقطت عيني صورة شابة عشرينية يافعة، وهي تحاول تنظيم زحمة سيارات متدافعة للظفر بنصيبها من البنزين بأسرع وقت، وعلى الطريق كان الانطباع العام يشعرني كما لو أنني فعلا في الجزائر العاصمة، مع فارق اللّغة فقط، فالفوضى المنظمة نفسها سائدة؛ صراخ، أصوات أبواق سيارات وحافلات، أناس يركضون، رجال ونساء يعبرون الطريق من غير ممر المشاة..

حياة عالمثالثية بنكهة أوروبيّة.

على مدخل المدينة القديمة توقفت أمام كاتدرائية سان ميشال، الواقعة بالقرب من السفارة الفرنسية. كان الوقت زوالا والشمس حامية واليوم أحد وفي الداخل عروسان يحتفلان بزفافهما، وروائح بخور وورد متناثر، وأدعية متصاعدة من جنبات الكاتدرائية الأربع. جلست قليلا في الخلف أشاهد طقس العرس، مستريحا قليلا من مسيرة أكثر من نصف ساعة مشيا، محاولا تحديد مكاني على الخارطة، ففي فندق سلافيا كنت قد طلبت خارطة للمدينة، وجدت أنها مختلفة، في بعض التفصيلات، عن الخارطة التي كانت معي، والتي طبعتها من غوغل ماب. وبعد بضع دقائق من التحديق في زاويا المكان المزخرفة، وتماثيل الصليب، خرجت من الكاتدرائية تاركا العروسين مستمتعين بزفافهما، ومررت بأكاديمية العلوم

والفنون، ببنائها الباروكي المميز، والتي أورثها الكاتب إيفو أندريتش (صاحب نوبل 1961) أعماله، ثم تسكّعت قليلا على طول جادة الأمير ميشال، المخصصة فقط للمشاة، والتي تعتبر قطب المدينة السياحي، ومنطقة مفضلة للتنزه، تمتاز ببناياتها القديمة، التي تعود إلى نهايات القرن التاسع عشر، وتكتظ اليوم بمحلات الماركات التجارية العالمية، مكاتب شركات طيران مختلفة، بما فيها الشركات العربية، بالمقاهي والمطاعم: الصينية والأميركية والإيطالية، وحتى التونسيّة، فقد وجدت صدفة، في ركن صغير من أركان الجادة، مطعما تونسيا رُسم على واجهته صورة ثلاثة جمال، بشكل إيكزوتيكي، يمكن أن يستقطب السّائح الساذج، والذي لا يعرف من الوطن العربي سوى الكليشيهات، والصور القديمة بالأسود والأبيض. واصلت المشي، حتى نهاية الجادة، وجدت نفسي في ساحة تيرازي، أمام معلم آخر من معالم المدينة المعمارية: فندق موسكو (Hotel Moskva)، والذي بناه الروس العام 1906، بواجهة من السيراميك، وهو يصنف ضمن التراث الثقافي للبلد، فهو واحد من أقدم الفنادق في المدينة، ولا يكاد يذكر الجانب السياحي من صربيا دونما ذكر فندق موسكو، الذي عرف محطات تاريخية كثيرة، فقد كان آخر مكان محرّرا في صربيا نهاية الحرب العالمية الثانية، بعدما أُحتل من طرف الشرطة النازية السريّة (غيستابو)، كما عرفت غرفه إقامة كثير من الشخصيات الثقافية والسياسية الشهيرة: ألفريد هيتشكوك، جان بول سارتر، ياسر عرفات وروبير دينيرو وغيرهم. بداية الخمسينات تحوّل إلى نقطة استقطاب نخبة

دولة يوغسلافيا الناشئة الحديثة (مثل إيفو أندريتش وفاسكو بوبا)، فقد شيّد وفق معمار الفن الجديد، الذي برز خصوصا مع نهاية القرن التاسع عشر، وأُعتبر وما يزال يعتبر واجهة صربيا نحو العالم الجديد، وبؤرة تطور المطبخ الصربي، ففي الفندق نفسه يمكن أن يتذوّق الزائر نوعا خاصا من الحلوة الشهيرة في البلقان، تحمل اسما لفندق ذاته، وبالقرب منه سنجد «نافورة تيرازي»، التي يعود تاريخها إلى العام 1860، تزينها منحوتات رؤوس أسود، تقذف من فمها ماء في حوض ثمانيّ الشّكل، قبل أن أنحني يمينا وأتجه إلى واحد من أهم الميادين، ورمز من رموز المقاومة: ساحة الجمهورية، التي تحمل عبق ساحة الشهداء في الجزائر العاصمة، وملامح ميدان التحرير في القاهرة، ميدان مفتوح على كل التيارات، وشاهد على مرور أجيال من المناضلين والعشاق والعصاة. لمّا وصلت الساحة كانت الساعة تشير إلى حوالي السادسة والنصف مساء، والناس بدؤوا في تحضير أنفسهم للمواعيد الليلية، المقاهي المجاورة للساحة مكتظة، المقاعد العمومية المتناثرة هنا وهناك أيضا، أناس يطوفون حول المكان بشكل لولبي، فتية يجلسون القرفصاء تحت تمثال الأمير ميشال الثالث، يغنون ويعزفون على القيثارة، وحولهم فتيات يصفقن ويغنين. فجأة بلغ أذنيّ صوت دردشة بالعربية، التفتّ فإذا هي مجموعة من ثلاثة رجال تتكلم بالعربية، بلهجة شاميّة. فكرت أن أقترب منهم، أسلم عليهم، أتكلم قليلا معهم، لكني عدلت عن رأيي، قلت في نفسي ربما سيعتبرونني متطفلا أو ربما لن يستحسنوا فضولي. عدت إلى أجواء الفرح في الساحة وحاولت

التقاط نبض أحاسيس الناس وهم يقفون في مكان شكل وما يزال يشكل جزءا مهما من ذاكرة البلد النضالية والسياسية، فهناك نظمت أهم المظاهرات والتجمعات الاحتجاجية النقابية والطلابية والحزبية، ضد سلوبدان ميلوزفيتش عام 1991 مثلا، ودفاعا عن الديمقراطية والحريات عام 2005، فالاحتجاجات والاعتصامات في بلغراد، لا تبلغ أوجها إلا بالمرور على ساحة الجمهورية والتبرك بآثار من مروا بها ورسموا تاريخها، والوقوف تحت تمثال الأمير ميشال البرونزي وهو يمتطي حصانه ويرفع سيفه عاليا إلى السماء، والذي شُيّد عام 1886، تخليدا لدور الأمير ميشال أبرونوفيتش (1823-1868) في تحرير البلد من الوجود العثماني. بعدما أتممت الطواف حول الساحة نفسها أدركت، وبحسب الخارطة التي كانت معي، أني قد زرت جانبا لا بأس به من شتاريغراد، أو المدينة العتيقة، وكنت قد بدأت أشعر بجوع شديد. وأقرب مطعم منّي لم يكن سوى ماكدونالد. ورغم أنني لست من هواة المطاعم الأميركيةً الخفيفة، فقد جلست هناك لأنه، ببساطة، كان يتوفر على خدمة الإنترنت، وكنت بحاجة للتواصل مع صديق في الجزائر. طلبت هامبرغر دجاج كسائح بلا هدف، وجلست في الداخل أمام واجهة المطعم الزجاجية، أتفرّج على حركة المارة في الخارج، محاولا فهم عبارة غرافيتي كتبت على حائط قبالتي: « Revolucija se nastavlja viva Chavez». ترجمها لي موظف في الفندق لاحقا بما معناه: «الثورة مستمرة يحيا شافيز».

❖ ❖ ❖

شوارع المدينة الواسعة ونمط الحياة المضطرب هما ميزتان مهمتان من ميزات العاصمة الصربية.. أمام محطة القطار، التي لا تبعد عن سلافيا بأكثر من ربع الساعة، يمكن للعين أن ترصد طبقات المجتمع المختلفة، من علية القوم إلى أبسطهم، وجوه متعددة وعيون مختلفة تعبر عن تعدد إثني وثراء ثقافي، وتراتبية اجتماعيّة. الناس عادة يستخدمون وسائل النقل العمومية، نظرا لتكلفتها المنخفضة، مقارنة بوسائل نقل خاصة، كالسيارات الفردية، التي تأتي من دول غرب أوروبا، بأسعار مرتفعة مقارنة بمتوسط دخل المواطن العادي، والذي لا يتعدى الأربعمائة أورو. مع أن كرواتا ونظراءهم من سلوفينيا يعتقدون أن استخدام سيارة خاصة في بلغراد يعتبر الخيار الأفضل بحكم سعر البنزين (يسمى أيضا benzine باللّغة الصربو-كرواتية، تنطق مثل العربية) المنخفض مقارنة مما هو عليه في دول الجوار البلقاني الأخرى. في الحقيقة فارق السعر ليس كبيرا، يظهر فقط في حال مقارنة عملات الجيران النقدية، مع المستوى المتدني للدينار المحلي، الذي تهاوت قيمته، خصوصا في العقدين الماضيين، مما أثر سلبا على المستوى المعيشي العام، وأجج مشاعر الشوفينية والاعتقاد أن الأجانب هم السبب، وأنهم يزاحمون أبناء البلد في «رزقهم»، ومن المتضررين من هذه النظرة القاصرة الأقلية المسلمة، التي تتركّز خصوصا في مدينة سانجاك دوسيميتريفو (من التركية: سنجاق، بمعنى مقاطعة) شرقي البلاد،

ووضعها لا يختلف عن وضع مسلمي العاصمة، الذين يمارسون شعائرهم تحت حراسة أمنيّة مشددة. ففي زيارتي إلى مسجد بلغراد، الواقع بحي دورشول، بالقرب من المدينة العتيقة، والذي يعود تاريخ بنائه إلى حقبة الوجود العثماني منتصف القرن السابع عشر، شدّ انتباهي وجود دورية شرطة على البوابة الرئيسية، شرطيان وشرطية، بدا المشهد غريبا وغير مألوف بالنسبة إليّ. توضأت ودخلت وأديت مع حوالي عشرة أشخاص لا أكثر صلاة العصر. بعدها اقتربت من الإمام وهو شاب من أصل ليبي، بلحية كثة وبشرة سمراء فاتحة، يقيم في بلغراد منذ ثلاث سنوات، ويشتغل في مهن حرة، أخبرني أنه يصلي بالناس، من حين إلى آخر، وينوب عنه زميل له في غيابه، وأن دوريّة الشرطة متواجدة بشكل دائم لحماية المسجد، الذي تعرض للحرق عام 2004 كردة فعل على حرق مسلمين لكنيسة أرثوذكسية في كوسوفو، خلال الاضطرابات الأمنية التي عرفتها المنطقة حينها، وتم ترميم جزء مهم من المسجد سريعا، وأعيد فتح أبوابه للمسلمين، الذين لا يتجاوز عددهم في كل صربيا حوالي 180.000 شخص، غالبيتهم من أصول بوسنية ومن جمهورية الجبل الأسود. مسجد البيرق، هكذا اسمه، هو المسجد الوحيد في العاصمة الصربية، الذي يحاول، رغم مساحته الصغيرة، الحفاظ على إقامة الشعائر الدينية، تأكيدا على ترسخ الوجود الإسلامي في المدينة ذات الغالبية الأرثوذوكسية، والتي كانت تحتضن في السابق ثمانين مسجدا.

❖ ❖ ❖

صبيحة يوم ثلاثاء، خرجت من الفندق مبكّرا نوعا ما، أخذت نسخة من الجريدة اليومية المجانية «24sata» (بمعنى 24 ساعة) المعروضة على الرصيف، اتجهت إلى موقف سيارات تاكسي قريب، وطلبت من السائق أن ينقلني إلى متحف تاريخ يوغسلافيا، المتحف الأشهر في البلقان، الذي يضم إرث الزعيم الأسبق تيتو ورفاته. كنت في سلوفينيا قد زرت قصرا من قصور تيتو، واقتربت من بعض أغراضه وحاجياته الشخصية، وفي بلغراد من الضروري أن أزور متحف مقتنياته الثمينة، التي تنازلت عنها أرملته إيفانكا بروز لتعرض أمام الجمهور. سائق التاكسي بدا سعيدا وهو ينقلني إلى وجهتي، محاولا أن يحدثني بالإنجليزية، وأن يقنعني بمعرفته الشاملة بتاريخ وحياة تيتو. كان يبدو شابا في منتصف الثلاثينات، مما يوحي أنه ولد في السنوات الأخيرة التي سبقت وفاة الزعيم اليوغسلافي الأسبق، بالتالي ما يعرفه عنه لا يتعدى ما سمعه من الآخرين أو قرأه أو شاهده على شاشة التلفزيون. بالوصول إلى وجهتي لاحظت أن المتحف لم يكن بعيدًا كثيرا عن سلافيا، وكان يمكنني الذهاب إليه مشيا.

كنت قد وصلت قبل موعد الافتتاح بحوالي الساعة (يفتتح على العاشرة صباحا)، ووجدت على مدخل البوابة رجلا ضخم الجثة، بشارب كثيف، سلمت عليه: دوبردان، فرد عليّ متحدثا بالإسبانية معتقدا أنني إسباني. أخبرته أنني جزائري فراح يحدثني عن قريب له كان يشتغل في

قطاع البترول بالصحراء الجزائرية سنوات السبعينات، قبل أن ينتقل إلى ليبيا ومن هناك إلى بريطانيا. حكايته عن قريبه لم تكن كافية لتمضية الوقت إلى الساعة العاشرة، وخرجت لأجلس على مقعد في باحة المتحف، وأتصفح قليلا الجريدة التي كانت معي، متسائلا: لماذا لا توجد جرائد مجانية في الدول العربية؟ جرائد تقدم خدمة عمومية. في الجزائر مثلا تستفيد جرائد من مساحات إشهارية جدّ واسعة مما يستوجب إدراجها في خانة جرائد التوزيع المجاني، مع ذلك فهي تصرّ على تكليف المواطن البسيط دفع ثمنها. قبل العاشرة ببضع دقائق نادى عليّ البواب وأخبرني بإمكانية الدخول، بعد دفع رسوم رمزية. كنت الزائر الأول، وربما الوحيد للمتحف ذلك اليوم. بتجاوز العتبة وجدت نفسي في قاعة فسيحة، تقف وسطها شابة بيضاء البشرة، بشعر أسود طويل، تعمل مرشدة سياحية. سألتني إن كنت بحاجة إلى مساعدة لزيارة المتحف، فأجبتها بأني أفضل زيارته بشكل فردي وعفوي، فأنا أحبذ اكتشاف الأمكنة دونما مخططات مسبقة، أو إرشادات سياحية، التي أشعر أنها تضيق من حريتي أكثر مما تفيدني.

صعدت الطابق العلوي حيث توجد قاعة معروضات كُتب على مدخلها: «هدايا قدمت لتيتو بين عامي 1953-1979»، يعني أكثر من ربع قرن من الهدايا لرجل البلقان التاريخي، صاحب المكانة المعزّزة بين قادة دول العالم الثالث، وعنوان المهابة بين دول العسكر الغربي. في الداخل، انفتحت أمام عينيّ قاعة فسيحة وضعت فيها كل هدية، على حدة، في

صندوق زجاجي، ينفصل الواحد عن الآخر. توزعت، بشكل عشوائي، دونما ترتيب كرونولوجي أو جغرافي، ودون تمييز بين القيادات والملوك التي قدمتها.. من بين الهدايا مثلا سواران وقلادة وعلبة سجائر كلها من الذهب الخالصة مقدمة من هايلي سيلاسي، إمبراطور إثيوبيا ما بين 1930 و1936 ثم ما بين 1941و1975، ميدالية الاستقلال من قائد الخمير الحمر الكمبودي بول بوت، وميدالية شرفية من أمير الكويت جابر الأحمد الصباح وطقم قهوة وشاي فاخر من سعد العبد آل الصباح، ميدالية أخرى من شاه إيران، والميدالية المحمدية من ملك المغرب الحسن الثاني، ومن الأردن ميدالية من الحسين بن علي، وغيرها من الهدايا الأخرى القيمة ثمنا، من حكام عرب و أجانب، مثل العائلات الملكية في هولندا والنرويج والدانمارك. لفت انتباهي أن الهدايا القادمة من قادة دول عربية ومن دول العالم الثالث، كانت تُختصر في الذهب والماس والميداليات بينما الهدايا القادمة من أوروبا فكانت عبارة عن لوحات فنية ومنحوتات قيّمة وأغراض تحمل أبعادا ثقافية وفنية، ومن مجرد تفقد مقتنيات تيتو يمكن استنباط بعض أوجه الاختلاف بين الحاكم العربي، الذي يقدر الثروة في المال خصوصا، والحاكم الغربي الذي يرى رأس ماله في الفن والثقافة عموما.

لم أطل المكوث في صالة المعروضات، وخرجت من المتحف ورأسي يكتظ بصور الهدايا الثمينة جدا التي كان يتلقاها زعيم البلد الأسطوري،

وأنا أفكر في طبيعة الهدايا التي كان يقدمها هو بدوره لرؤساء وملوك عرب، هل كانت أيضا من ذهب وماس؟ ليت الحكام العرب يفعلون الشيء نفسه ويسمحون لأبناء الشعب بالاطلاع على الهدايا التي تزين خزائنهم.

توجهت بعدها إلى يمين المتحف حيث يوجد ما يسمّى «بيت الزهور» (بُني عام 1975)، الذي يحتضن ضريح تيتو، وهو بيت واسع، بحديقة ونافورة في الداخل، ومتحف فنون. على جنبه الأيمن سنجد ضريح تيتو الرخامي، والذي يظهر كقبر عادي، دون ديكورات إضافية وفاخرة، كما تعوّد النّاس رؤيته في قبور وأضرحة قادة وسياسيين عرب. على يسار الضريح علقت صورة كبيرة للزعماء المؤسسين لحركة عدم الانحياز، مع لافتة تحكي قصة نشأة المنظمة التي دعا إليها تيتو وجمال عبد الناصر ونيهرو وسوكارنو منتصف خمسينات القرن الماضي، وعلى يمين الضريح، قاعة تعرض فيها بعض صور الزعيم اليوغسلافي في مناسبات وطنية ورياضية، وبرقيات أرسلت إليه في مناسبات مختلفة، مثل أعياد الميلاد، من مواطنين أطفال ومحبين له من مناطق البلقان المختلفة. فقد كان المدرّسون في أيامه يكلّفون التلاميذ بكتابة قصائد ورسائل للزعيم، تختار أفضلها لترسل إليه.

في الحقيقة، لم أتوقّع أن أجد ضريح الرجل الأقوى تاريخيا في البلقان بتلك البساطة، فقد كانت تدور في ذهني صور مختلفة، وتوقعت أن أجده

ضريحا بمقاسات إمبراطور عظيم لا يموت، وزعيم شعبي لم يحكم أحد مثله يوغسلافيا سابقا. وخرجت من المزار الصامت، الذي لم يعد يحجّ إليه سوى القليل من أوفياء الماضي، متجها إلى متحف مقابل، حيث تعرض ملابس تقليدية تمثل كل دول البلقان الحالية، وبعض أسلحة الصيد القديمة وأغراض فلكلورية قادمة من دول العالم الثالث، من الجزائر كانت تعرض سكاكين، ولست أعرف لماذا اختاروا السكاكين من غيرها من الأغراض التقليدية الأخرى. ربما هو اختيار استشرافي، لأن السكاكين لعبت دورا مهما سنوات الإرهاب عشرية التسعينات، لما كان الجزائريون يذبحون إخوانهم الجزائريين في مشاهد فظيعة، لم يعرف لها تاريخ البلد سابقة. تركت سريعا المتحف وخرجت لألمح أمامي علم دولة الهند يرفرف فوق إقامة سفير البلد نفسه، فالمنطقة التي يوجد فيها المتحف، وبيت الزهور هي منطقة دبلوماسية، تعرف حراسة أمنية مشددة، وتتوزّع فيها كاميرات مراقبة في كل زاوية وركن. توجّهت إلى الطرق العام، وفكرت في أخذ تاكسي، ثم عدلت عن الفكرة، فالطريق إلى سلافيا ليس بعيدا، مشيت عبر الطرقات الواسعة غير المكتظة، لأتجه بعدها بالترامواي، في جولة سريعة، إلى أحياء المدينة الخلفية، الفقيرة، والتي تكشف عن صورة مخالفة عن الواجهة الناصعة، أحياء حيث تتقاطع جميع التناقضات، وتتعايش الأضداد، هناك حيث يكبر – بحسب بائع السجائر الخمسيني – شباب لا يحلم سوى بفرصة عمل أو طريقة هروب من البلد نحو وجهة غير

معلومة، نحو دولة أوروبية غربية أو صوب أميركا أو أستراليا أو واحدة من دول الخليج الغنية.

❖ ❖ ❖

في بلغراد، حيث قُطع رأس القائد العثماني قارة مصطفى، بأمر من السّلطان محمد الرّابع، بعد فشله من غزو فيينا، الحبّ يولد بين جنبات الأحياء الشعبية، المزدحمة وأقل فوضوية مقارنة بأحياء الجزائر العاصمة أو بيروت الشعبية، وطعم الحياة يزداد حلاوة كلما استعاد الفرد لحنا قديما أو ذكرى من الماضي القريب – البعيد في آن. أبناء مدينة النهرين (صافا والدانوب) لا يتخيّلون ولا يؤسسون حاضرهم ومستقبلهم سوى بالتفاعل المستمر مع النوستالجيا المتوحّشة والمترسّخة على جدران وسيقان أشجار السنديان المتناثرة في الطّرقات. بعض السياسيين الصرب لا يجدون حرجا في التعبير عن تعال يتنافر مع الواقع، ونظرة دونية في التعامل مع دول الجوار، كما لو أنهم الكل المكتمل، والوريث الشرعي الوحيد ليوغسلافيا، والباقي مجرّد جزء مجزأ بلا أسس، بعض منهم يحلم بعودة يوغسلافيا الكبرى مثلما يحلم الرّوس بعودة الاتحاد السوفياتي.

❖ ❖ ❖

أرصفة المدينة كما لو أنها تحكي قصصا وتتكلم لغة مبعثرة لا تشبه اللّغات الأخرى، تسرد بشجن تاريخا لم يكتمل. كل شيء في بلغراد يبدو كما

لو أنه انطلق على أحسن ما يرام لكنه لم يتمم مسيرته ولم ينته كما ينبغي. كل شيء يقبع في حالة انتظار، متطلعا إلى بعث جديد، إلى مخرج من الركود، وإتمام التكوين، ومحو قصف الناتو عام 1999، الذي استمر حوالي الشهرين والنصف، بعدما كان مقررا لمدة ثلاثة أيام فقط، وهو قصف استهدف قدرات الجيش الصربي، لمنعه من أيّ ردّ ضد مطالب الجارة كوسوفو التحرريّة. وقتها، في حالة الحصار، ومع بدء قوات الحلفاء عملياتها، تجمع حوالي عشرة آلاف صربي، في حفل روك تضامني مندد بالقصف، احتفلوا بالحياة تحت أصوات الطائرات والقذائف والصواريخ، وقتها دمرت أيضا محولات الطاقة، وولجت بلغراد ظلاما، سيستمر مع الزمن رمزيا، فليل المدينة يبدو موحشا متبرئا من شغف المدينة النهاري، ليل غير آمن، مرتبك، ليل تتداخل فيه جملة من الأحاسيس دفعة واحدة، ليل قلق ومحفز على اعتزال الصعلكة.. شوارع جانبية مظلمة وحركات مارة متوترة، ومتسارعة كما لو أنها تخاف من حصول شيء ما مباغت يعكر سلمها. هو ليل صامت لا يختلف عن ليالي الجزائر العاصمة وعنابة ووهران، خصوصا لمّا يجد الزائر نفسه في الحارات الجانبية بعد منتصف الليل، وهو لا يعلم هل الدرب الذي سيسلكه مستقيم أو متعرّج.. لكن بلغراد المتعبة يبدو عليها استعداد لنفض غبار ما مضى، رغبة منها في إعادة رسم البسمة على وجهها الممتلئ شبابا، فرغم الأحزان يعيش أبناء المدينة فرحا بانتصارات رياضية صغيرة في التنس، تذكرهم بأمجاد سنوات النجم

الأحمر، فريق المدينة الأول في كرة القدم.. يردّدون أغاني تراثية ويرسلون باقات ورد إلى المستقبل.

شفتشينكو يلعب الشطرنج

فجأة، دون مقدمات، وجدتني أحزم حقيبتي الصّغيرة، تأهبًا للسّفر إلى أوكرانيا.. كانت ثورة الميدان قد عرفت تحوّلات متسارعة، نهاية فيفري 2014، وكلفتني المؤسسة الإعلامية التي كنت أشتغل فيها بالسّفر وإجراء استطلاع صحافي عن الوضع العام هناك، من وجهات نظر مختلفة: ثقافية واجتماعية وسياسية.

لم أخطط سلفًا لزيارة هذا البلد، لكن حتميات الرّاهن وحدها وضعته في طريقي. وبينما كنت بصدد إتمام مخطوط هذا الكتاب، فكرت أن أمنح نفسي وقتا مستقطعا، وأن أوافق على المهمة الصحافيّة، خصوصا أن أوكرانيا تندرج ضمن مجموع البلدان السّلافية العرق، وتاريخيا هي أول

دولة لسلاف (صقالبة) شرق أوروبا، مهد ما كان يسمى في القرن التاسع ميلادي بإمارة «كييف روس»، التي تفرعت عنها ثلاثة دول: روسيا وأوكرانيا وبيلاروسيا.

زيارة أوكرانيا كانت ستمنحني فرصة للتعرف، عن قرب، عن سلاف الشمال، وامتداداتهم الجغرافية في القارة العجوز.

في ظرف ساعتين فقط، كنت قد أعددت الحقيبة (مع العُدّة الصحافيّة وبعض الملابس الشتويّة) واتجهت إلى المطار، بعدما كنت في اليومين السابقين قد اتصلت بصديقين مقيمين في كييف، للتنسيق معهم في المهمة نفسها.

عادة، تحترم الشّركة القطريّة للطّيران مواعيدها. فهي تزاحم كبريات الشركات العالمية بفضل مهنيتها وجودة خدماتها. وكما يقول المثل: «الاستثناء يؤكد القاعدة» وهو ما حصل معي يوم رحلتي من الدّوحة إلى كييف، مرورا بميلانو. فقد تأخرت الطائرة عن موعد الإقلاع المحدد بحوالي السّاعة ونصف السّاعة، ووصلت مطار مولبانسا بميلانو، بعد ست ساعات ونصف السّاعة من الطّيران، في نفس توقيت إقلاع طائرة الشركة الأوكرانية إلى العاصمة كييف. أدركت أنني أضعت رحلتي، وشعرت بقلق ونرفزة واضحتين. وطلبت من إحدى مضيفات الطائرة القطرية أن

تتصل بالشركة الأوكرانية وتسألها إمكانية تأخير الإقلاع قليلا، ونسيت أن التأخير عادة عربيّة، بالكاد نجد أثرا لها مع شركات الطيران الأوروبيّة. طلبت مني المضيفة نفسها أن لا أقلق، وأكدت لي أنها ستجد حلا لمشكلتي وما إن خرجت من باب الطائرة حتى وجدت أمامي شابة إيطالية يافعة، مسمرّة البشرة ومتوسطة القامة، تحمل لافتة كُتب عليها اسمي. اقتربت منها. «مرحبا! أنا هو المكتوب اسمه على اللافتة» قلت. ابتسمت ابتسامة سريعة وردّت: «نحن جد متأسفين للحرج الذي سببناه لك.. لقد أقلعت الطائرة الأوكرانية.. ولا حل عندك سوى انتظار رحلة الغد في التوقيت نفسه، ونتكفل بإقامتك في فندق اللّيلة، أو تغيير الرحلة على متن الجويّة النمساويّة التي ستقلع بعد ثلاث ساعات!».. بين الانتظار 24 ساعة أو الانتظار ثلاث ساعات اخترت الحلّ الثّاني، وهكذا قامت الشابة الايطاليّة نفسها بتغيير الحجز على الشّركة النمساويّة، وتحويلي على فيينا ومن هناك إلى كييف، التي وصلتها في حدود الحادية عشرة والنصف ليلاً.

أن تدخل مدينة غريبة عنك منتصف ليل بارد جدًا، فتلك لحظة تجمع مناصفة بين المغامرة و المقامرة. في مطار بوريسبيل الخالي لحظتها من الطّائرات، عدا من طائرة الخطوط النمساويّة بدا الوضع مريبا. في الدّاخل لم تكن صالة الواصلين تعجّ بحركة طبيعيّة كما يمكن أن نتخيلها في مطارات أخرى. كان جنديان أمام مدخل الصالة وطلب مني أحدهما

التّوجّه مباشرة إلى رواق يؤدي إلى نقطة مراقبة جوازات سفر تشرف عليه ضابطة في الجيش، بعينين غائرتين وشعر أصفر وملامح تتجاوز الأربعين. نظرت قليلا في الباسبور الأخضر ثم خاطبتني بالروسيّة. لم أفهم شيئا. فأعادت بإنجليزية خافتة سؤالي إن كنت أتكلم الروسيّة. أجبتها بالنّفي، وحاولت تدارك الوضع سريعا بالإمساك بجواز سفري، وإظهار الفيزا الأوكرانية، لكنها لم تتعامل معي بإيجابية ونادت على جندي آخر، قادني بدوره إلى مكتب تحقيق مجاور. دخل هو وبقيت أنا في الخارج أنتظر حوالي ربع ساعة، كنت خلالها أرى جنودًا يدخلون ويخرجون من المكتب نفسه، لكني لم أستطع السّؤال عن مصير التّحقيق، فهم لم يكونوا يتكلمون فيما بينهم سوى الروسية أو الأوكرانية. وجاء الفرج بظهور الجندي السابق نفسه حاملا الجواز. طلب مني مرافقته إلى الضابطة، التي ختمته سريعا. وكمسافر غير مدرك وجهته، فكّرت أن أول شيء توجبّ عليّ القيام به هو تحويل حوالي مائة أورو كانت في جيبي إلى العملة المحلية هريفنا. وجدت شابة عشرينية خلف شباك مكتب تحويل العملة، كانت وحيدة وتبدو كئيبة وهي تشتغل إلى غاية منتصف الليل في مطار دولي شبه خال من حركة المسافرين. من المؤكد أنها لم تكن قد رأت زبائن منذ ساعات، وربما تفاجأت بزبون يأتي في طرف الليل. لم أسألها، كما أفعل عادة عن سعر التحويل، ولم أفاوض عليه، ومررت ورقة المائة أورو من تحت العازل الزجاجي. نظرت إليها جيدا، قلّبتها بين راحتي يديها، ثم سجلتها وسلمتني حوالي 12.000 هريفنا. مبلغ كبير جدا. ما يعادل راتبا شهريا

لبعض الموظفين في البلد. في الخارج، وكعادة المطارات، وجدت بعض سائقي السيارات النفعيّة يترصدون زبائن تائهين. عرفوا سريعا أني أجنبي و حاولوا مخاطبتي بالإنجليزية، بالقول إنهم يعرضون سعرا جيدا ويمكنهم إيصالي حيثما أشاء، لكني وصلت طريقي بحثا عن سيارة أجرة حقيقيّة، فقد علمتني التجربة الجزائرية عدم الوثوق في سيارة «الكلوندستان»، ووجدت سيارة أجرة لشاب طويل كان يدخن بعمق سيجارة كما لو أنها السيجارة الأخيرة. حييته وقلت مباشرة: «باسينا»، فهم المقصد، واسم الشارع الذي أودّ الذّهاب إليه. «welcome!» ردّ عليّ وفتح الباب، قبل أن أواصل: «how much?»، فمن الضروري تحديد السّعر سلفا تجنبا لأيّ عملية احتيال لاحقا، خصوصا أنني لم أكن أعرف تسعيرة سيارات الأجرة. «200» أبلغني بالرقم بكتابته على هاتفه النقال. وصلت الرسالة، وانطلقنا إلى وجهتنا التي لم تكن تبعد عن المطار بأكثر من نصف ساعة (30 كلم). في الطّريق بدت لي كيف مدينة مظلمة. الإنارة العمومية ضعيفة، بشكل يوحي للزّائر أن المدينة تغرق في نوم، ليس فقط بيولوجيا بل أيضا اجتماعي. لكسر الصمت شغّل السّائق الراديو على محطة بولونية، كانت تبث أغان أميركية. حاول أن يضفي جوا ناعما، لم يشعرني فعلا بالرّاحة ولم أتجرأ عن سؤاله عن الوضع العام في البلد، تجنبا لإثارة أيّ حساسيّة، كما حصل معي يوما مع سائق من أبيدجان انتفض في وجهي لما سألته عن الرئيس غباغبو، وألحقت سؤالي بوصف الرئيس العاجي الأسبق بالمتهور. لم أكن أفكر لحظتها سوى في الوصول إلى الغرفة التي حجزتها والنوم قليلا

بعد ساعات طويلة من السّفر والانتظار. وصلنا مقصدنا كما كان مدونا في إشعار الحجز الذي كان معي. وقفت أمام العنوان وكان عبارة عن بناية إدارية. ضغطت الجرس وانتظرت. ثم ضغطت مرة ثانية وانتظرت ولم يفتح ولم يرد أحد من الداخل. بدا الأمر محيرا. كان البرد يلسع وجهي وشعورًا بالقلق يزحف تدريجيًا في جسدي. اقترب مني سائق سيارة الأجرة و سألني إمكانية المساعدة. لم أكن قادرا حتى على التفكير في حلّ. أريته إشعار الحجز، والعنوان المدون، المطابق تماما لعنوان البناية التي كنت أقف فيها، ورقم هاتفهم. أقترح عليّ الاتصال بهم. فكرت أن الأمر لن يجدي نفعا، فقد كانت السّاعة تتجاوز منتصف الليل، ولن يردّ عليه أحد. وحصلت المفاجأة، فقد ردت فتاة على الطّرف الثّاني من الخطّ، وطلبت أن تكلمني مباشرة. جاءني صوتها جافا وغير مبال كثيرا. «سيدي، أنت هناك في عنوان المكتب وليس عنوان الغرفة.. لقد أخطأت وجهتك.. لست أعرف ماذا أفعل لمساعدتك.. أنتظر وسنرى..» قالت، ورددت، من جهتي، بنبرة غاضبة أن الخطأ منهم وليس مني، بحكم أني اتبعت العنوان المدوّن على الحجز وكان عليهم تنبيه الزبون بالعنوان الحقيقي للغرف. لم تول اهتماما لغضبي وعتبي، وأنني في الشّارع، وفي ساعة متأخرة، وفي ليلة باردة.. ظلت تكرّر أنها سترى ما يمكن فعله، لكنها لم تعطني خيط حل أو بصيص أمل!..وبعد حوالي ربع ساعة، وأنا أنظر إلى الشارع الخالي، الموحي كما لو أن الحياة توقفت فجأة هناك، أعادت الموظفة الاتصال على هاتف السّائق و طلبت مني الانتظار في مكاني، لحين وصول موظف سينقلني إلى

الغرف المحجوزة. وصل الشخص المقصود، بعد أكثرمن نصف ساعة، وأخذني إلى وجهتي، في بناية قديمة مكوّنة من شقق وغرف ومكاتب، لأكتشف أن المسافة بين عنواني المكتب والغرفة لم تكن تبعد بأكثر من بضع خطوات، كان يمكن أن تدلني الموظفة عليها أو تدل سائق السيارة في الهاتف وننهي القضية سريعا.. كان ذلك أول درس في كييف: التماطل هي عادة يوميّة.

قضيت اللّيلة الأولى في نوم مضطرب، واستيقظت صباحا في حدود الثّامنة ونصف. شربت قهوة على عجل في مقهى مجاور، ثم اشتريت شريحة هاتف محلية، اشتريتها دونما تقديم معلومات شخصية، ولا صورة عن جواز السّفر أو البطاقة الشّخصيّة كما يحصل عادة. ففي محل بيع الهواتف والشرائح لم يطلب مني الشاب الأبيض النّحيف سوى دفع ثمنها. واتصلت فورا بإيفان، حددّت معه موعدا وتوجهت إلى ساحة الميدان، قلب الثورة.

وصلت الميدان، المطوّق بالمتاريس والعجلات المطّاطية والأسلاك الشائكة، لأجد إيفان في انتظاري. كان قد أتمّ للتوّ تسجيل برنامجه الإذاعي الثقافي في راديو أوكرانيا الوطني. وبعد تبادل سريع للتحيّة (دوبرودين، بمعنى «مرحباً» بالأوكرانية) بدأ في التأفُّف من الوضع: «هل شاهدت

التلفزيون الرّوسي اليوم؟ يبدو أنهم صارمون في مسعى وأد الثّورة». كان وجه إيفان جدّ منقبض وهو يتحدَّث عن مخاوفه من تقسيم البلد إلى ثلاثة أجزاء (شرق و جنوب مواليان لروسيا، و غرب موالٍ للاتّحاد الأوروبي)، رددت عليه بنظرة صامتة، وحوَّلت طرفي جهة امرأة عجوز، تجاعيد وجهها المتعب تشي أنها تجاوزت السّبعين، وهي تمشي بخطى متثاقلة، في ذهاب وإياب بين طرفي الميدان، حاملة صورة ابنها الشاب الذي فقد ذراعه الأيسر في الثورة الأخيرة، وتطلب صدقات من المارّة. كان الميدان وقتها ما يزال يعجّ بالحركة، والمعتصمون ذوو البدلات العسكريّة والأحذية الخشنة، من رجال ونساء، الذين رفضوا إخلاء المكان، بدؤوا بتحضير خيامهم المنتصبة وسط الميدان، المُزَيَّنة بالأعلام الأوكرانية الصّفراء والزرقاء، أعلام المدن الدّاخلية التي جاؤوا منها (أغلبها مدن غرب البلاد) وأعلام دول أوروبية مختلفة، لقضاء ليلة باردة أخرى، فدرجات الحرارة مساءً تنخفض إلى أدنى من عشر درجات مئوية، ولا بديل عن التدفئة بالحطب وبقايا أثاث خشبي في ظلّ غياب أدنى شروط العيش الكريم لهم ولبعض أفراد عائلاتهم التي تقاسمهم الخيام نفسها. هم يقتسمون المعاناة على أرض الميدان (أو ساحة الاستقلال، رمز تحرُّر البلد عام 1991)، ويتزوَّدون بالماء الصّالح للشرب من بعض الصهاريج التي تأتي صباحاً لتعبئة قارورتهم البلاستكية، وأحياناً لا تكفي الجميع، ويأكلون من المطاعم الميدانية الصغيرة التي تسهر عليها نسوة، وتعتمد على مساعدات وتضامن الأوكرانيين فيما بينهم، وهي مطاعم ارتجالية لا تقدِّم أكثر من صحن حساء ساخن، لم أستسغ طعمه

القوي والغريب عنّي، كأس شاي وبعض الخبز، وأحياناً قليلة الجبن. كان الأكل متوافرا للمعتصمين. الجميع يستفيد من نصيبه. غالبية محلّات الأكل السريع التي كانت موجودة حول الميدان أغلقت أبوابها اضطراراً و محلّات أخرى خفَّضَت أسعارها، لأن المارّة مثل الثوّار يكتفون بالأكل مجّاناً هناك. حتى غير الخائضين في الثورة استغلوا الوضع لإشباع معدهم مع الثوار.

يشتغل إيفان في الإذاعة، منذ أربع سنوات، وفي الترجمة الأدبيّة من الفرنسيّة إلى الأوكرانيّة، فقد سبق أن نقل بعض الكتّاب الفرنسيين الكلاسيكيين إلى لغته الأم، وهو كاتب معروف بين أوساط قرّاء البلد، ويعمل كثيراً لينال قليلاً. «متوسِّط الرّاتب لا يتجاوز الثلاثمائة أورو، وهو راتب لا يكفي حتى لإيجار شقة صغيرة. الرشوة والمحسوبية ترسَّخَتا، وصارتا جزءاً من حياتنا اليومية. أمي مثلاً اضطرت أن تغلق متجراً تجارياً صغيراً لها بسبب ضغط مسؤولين مرتشين عليها». الوضع أيام الرئيس الأسبق يانكوفيتش (1950) كان - بحسب شهادات مَن التقيتهم - جدّ سيِّئ، والممارسات اللاقانونية كانت تنخر جسد البلد. كلّ إجراء إداري عادي كان يستوجب على المواطن دفع مقابل مادي يكون أحياناً باهظاً جداً، والمبلغ يتغيَّر باستمرار بحسب أهمّيّة الخدمة المقدَّمة من طرف الموظّف وبحسب طبيعة المواطن الزبون الطالب لها. والعلاج في المؤسسات الاستشفائيّة العموميّة، حيث من المفروض أن تقدّم خدمات مجّانية، يلزم المواطن أيضاً دفع رشاوى مقابل الحصول على موعد فحص

طبي روتيني. وضع عَكَّر - أيضاً - حياة أبناء الجاليات العربية المقيمة في كييف، على غرار حمزة (37 سنة)، وهو من جنسيّة تونسية يقيم في كييف منذ ستّ سنوات، متزوِّج من أوكرانية، وأب لطفلة لم تتجاوز شهرها السابع: «افتتحت قبل عامين كافيتيريا صغيرة، وسط المدينة، لكني لم أستمر أكثر من سنة. بعض أعوان الشرطة كانوا يأتون نهاراً ويفرضون عليّ دفع عمولات» يقول. الكافتيريا التي تحدث عنها حمزة كانت تقع في شارع صوفيا، بالقرب من فندق شهيرة بالمدينة يحمل الاسم نفسه، وليس بعيدا عنه ينتصب تمثال زعيم قوزاق أوكرانيا التاريخي بوهدان خمل نيتس كيي (1595-1657). حال حمزة لا يختلف عن حالَيْ وليد الأردني، وحسام المصري والذين قابلتهم جميعاً قرب السوق العربية (Bessarabsk). وهي سوق مغطاة لا تحمل من العرب سوى التسمية. في داخلها قابلتني وجوه رجال ونساء وفتية وفتيات كلهم أوكرانيون يعرضون سلعهم، من خضار ولحوم وزهور للزبائن. الخاصية العربية للسوق أنه يضم محلين صغيرين لبيع الفلافل والشاورما، مع أن هذه الأخيرة أصلها تركي.

تبدو كييف حكاية ممزّقة، تعيش اضطرابا وشتاتا داخليين، غير قادرة على استيعاب الصدمات التاريخيّة المتتاليّة، والتي تزايدت حدّتها في السّنوات العشر الماضية.. في تلك المدينة القلقة التقيت سلافا يختلفون عن نظرائهم في الجنوب في احتفالهم المستمر بالحياة رغم كل المحن.. وعدم

الثّقة سمة لا يتنكرون لها، فهم لايعرفون تماما أين تسير بهم الأقدار.. مع ذلك فهم مستمرون في الحلم.

شوارع المدينة الواسعة لا تختلف كثيرا عن شوارع عربية، تغلب عليها الفوضى المنظمة. في شارعي سوسييفا، ثم ميلينكوفا، حيث يوجد برج البثّ التلفزيوني الفولاذي (أعلى برج فولاذي في العالم 385 مترًا) صادفت أناسًا مبتسمين تارة ومتوجسين خيفة من الغريب تارة أخرى، يقتصدون في الكلام ولا يطيلون التحديق في عيون المارّة، لا يثرثرون سوى في الثورة وتبعاتها، من إيجابياتها إشاعة جوّ غير معهود من الأخوة بين أبناء المدينة، متعددة الأصول.

ميدان كييف (تسمية ميدان جاءت من اللّغة التتارية)، مُنشَأ وفق الطّراز الستاليني، مع نصب ضخم مخلد لاستقلال البلد. قبل ثورة 2013، كانت السّاحة تمثل مركز ثقل المدينة، ونقطة تقاطع الطّرقات والشوارع الفرعية، موعد تلاقي الأصدقاء والعائلات، ورحم الاحتجاجات السياسية. ووسط ركام مخلّفات الثورة، وأكياس الرّمل التي تحيط بالخيام والبناية الإدارية الشاهقة، التي كانت تؤوي متظاهرين، ووسط أعلام أوكرانيا، وأسفل فندق (Ukraine) حيث كان يقيم صحافيون، صادفنا كتّابا متظاهرين: أندري كروكوف، إيرنا كيربا، يوري وماري. أشارت إيرنا

بأصبعها إلى بناية يسارَ نصب الميدان التذكاري: «من هناك كان القناصة يطلقون الرّصاص الحَيّ على المتظاهرين». كانت لحظات تراجيدية عاشها كُتّاب أوكرانيون من الدّاخل، مدافعين عن صوتهم بالدّم متشبثين بحقهم في التخلُّص من رموز النّظام القديم. الكتّاب المعتصمون في الميدان يتداولون فيما بينهم عبارة ساخرة وعميقة :«شكراً بوتين!» ليس حباً في زعيم الكرملين ورئيس روسيا الأقوى، وإنما لتهوُّره في التدخُّل في شؤون البلد، ووصف ثورة الشعب بأذلّ الأوصاف، كنعت المعتصمين بالفاشيين، والحكومة التي تلت الثّورة بالحكومة الانقلابية، وما أثاره موقفه من تراصّ في الصفوف وتوحّد بين الأوكرانيين، مع اتّساع روح السخرية بين ثوار الميدان الذين علّقوا صوراً، ورسومات تشبّه الرئيس الهارب يانوكوفيتش بـ"هتلر"، وتصف بوتين بـالنازي.

انتفاضة «الميدان» أثبتت، بشكل واضح، الطّابع الوحدوي والتضامني والهوية الثابتة التي تجمع أبناء أوكرانيا، رغم تعدُّدهم، ومحاولات البعض إثارة العداء والتفرقة بينهم. وحدة التراب خيار شعبي لاتنازل عنه، يرافع عنه المحتجّون، والناشطون الثوريون. هم متفقون على رفض تكرار السيناريو الجورجي 2008، وما قامت به موسكو بتحويل شبه جزيرة القرم الأوكرانية إلى أوسيتيا جنوبية جديدة، كما يعارضون في الوقت نفسه منهج تفتيت البلد، وفق مرجعيات جغرافية أوإثنية، كما حصل بداية تسعينات القرن الماضي مع بني جلدتهم، سلاف الجنوب، في

يوغسلافيا. ومع ذلك، أمنيات المعتصمين ليست دائماً ممكنة كما يقول ديمترو (29سنة)، الذي تمنّى لو أن أوكرانيا التحقت أولاً بحلف شمال الأطلسي قبل مواجهة الكرملين والتفكير في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. «من سَيَحْمي البلد لو وصلت الدبابات الروسية هنا؟» يتساءل. «بدأت المشاركة في المظاهرات منتصف يناير الماضي كنت هنا يوم تدخَّلَ الـ«بركوتBerkout» (قوات مكافحة الشغب) بالرصاص الحَيّ، وشاهدت أناساً أعرفهم، وأصدقاء يسقطون أمام عينيّ، رأيت الموت يمرّ أمامي» يواصل المتحدِّث نفسه.

يوم 18 فيفري 2014، شاهد ديمترو رفيقه أليكسندر يسقط أرضاً جراء رصاصة في الرأس. «كان في سنّ الثالثة والعشرين، طالباً بمعهد الهندسة المعمارية» يضيف. يومها كان المعتصمون مخيَّرين بين التراجع عن ثورتهم التي بدأت نهاية نوفمبر2013، بعد أن علَّقت الحكومة مشروع التوقيع عن اتفاقية التجارة الحرّة مع الاتحاد الأوروبي، أو مواجهة عنف قوات الشرطة، والاستمرار إلى الأمام. وافقوا على الخيار الثاني، تمخّض عنه 82 قتيلاً وأكثر من 600 جريح. ديمترو، ومثل المئات من الأوكرانيين الآخرين، وضع صورة رفيقه أليكسندر أمام نصب الاستقلال وسط الميدان، وصار كلّ يوم يضع وردة أمامها تذكاراً له. «سوق الورد والشموع ازدهرت بعد الثورة» يعلِّق ضاحكا. فنفق ميترو الميدان تحوَّل سريعاً إلى سوق كبيرة لبيع الورد، والشموع للمعزّين وبالقرب من صورة رفيقه

كانت تصطفّ صور لعشرات الضحايا والجرحى الذين واجهوا الرّصاص بصدور عارية، والمارّة يتوقّفون كل مرة أمامها للصّلاة، والدّعاء لهم بالرحمة. «بعد الثورة سجلنا 113 بلاغاً بمفقودين» أخبرتني أوكسانا، وهي طالبة وناشطة متطوّعة جاءت لمساعدة المعتصمين في توزيع الدّواء، ثم الإشراف على خليّة الإبلاغ عنالمفقودين، وهي خليّة اتخذت من مقرّ بلدية كييف مقرّاً لها. ملامح أوسكانا توحي كما لو أنها بربرية، أضاعت طريقها في بلاد الأوكران. كانت متوسطة القامة، ببشرة بيضاء محمرّة، وعينين كبيرتين خضراوين. كانت كما لو أنها قادمة من عين الحمام أو من سيدي يعيش، قبائلية، شمال أفريقية الجمال. حدثتنا قليلا عن عملها المرهق، والمتواصل يوميا مدة عشر ساعات كاملة، قبل أن تعتذر بالانصراف للردّ على سيل المكالمات الهاتفية، الواردة من عدة مدن داخلية، تسأل عن المفقودين. «في السابق، كان مقرّ البلدية ممنوعاً علىعامّة الشعب. كان خاصّاً – فقط – بكبار المسؤولين، من هنا كانت تُتَّخَذ أهمّ القرارات. وهو من أوائل المؤسَّسات الرسميّة التي احتلَّها المتظاهرون في بدايات الثورة» تحدَّث إيفان. الدخول إلى المبنى نفسه لم يكن سهلاً. دوريّة من المتطوّعين كانت تقوم بحماية المدخل. طلبوا مني بطاقة إثبات الهوية وبطاقة صحافية وتقديم معلومات شخصية قبل السماح لنا بتخطّيالبوابة.

من الداخل، يبدو مبنى البلدية مُصَمَّماً وفق الطرازالمعماري النيو – كلاسيكي. في الطّابق العلوي نُصِبت شاشة كبيرة لعرض صور

وفيديوهات مُقْتَبَسة من أيام الثورة، وحُوِّل الطابق الأرضي منه إلى مستشفى ميداني، حيث التقيت فاسيل (31 سنة)، وهو ممرِّض متطوِّع. «قمنا بإسعاف وعلاج العشرات من الثوار. لست أعرف – تحديداً – عددهم، كانوا يأتون بالعشرات يومياً، نقوم بكل ما يمكن فعله، وبحسب الإمكانيات المتوافرة، لعلاجهم» قال. إلى جانبه كانت تقف الدكتورة إيرين (46 سنة) التي تحدّثت: «منذ نهاية فيفري2014، ومع سقوط النظام السابق خَفّ الضغط على المستشفى. نقوم حالياً بمتابعة بعض الحالات بأدوية وضمادات، أما المصابون إصابات بليغة وخطيرة فقد تَمَّ تحويلهم إلى مستشفيات أوروبية، في ألمانيا، وبولونيا، وجمهورية التشيك». كانت خزانة أدوية المستشفى الميداني، وهو واحد من ثلاث مستشفيات ميدانية، كانت تنشط بشكل سرّي أيام الثورة، موجودة في مكتب مجاور، كان يشغله سابقاً موظّف حسابات البلدية. وعلى الرواق دورية حرس في ذهاب وإياب، وعينها لا تغفل عن الداخل، وعن الخارج.

في صباح باكر بارد، خرجت إلى الشارع، أتحسَّسُ حركة المارّة، أتبع خطواتهم، في شارعي آرينا، وباسينا، ونهج خراتشاتيك (نظير شارع الحمرا البيروتي) صعوداً إلى الميدان، ثم الحارات والشوارع التجارية الفرعية محاولاً قراءة تعابير وجوههم.. وجوه صامتة، بأنوف محمَرّة بلسعات البرد عيون

ناعسة لا تنظر إلا إلى الأمام، مع قليل من التلاميذ يعبرون الطريق مسرعين رفقة أوليائهم باتّجاه مدارسهم.

الحياة في عاصمة البلد تسير بشكل حذر، خجول ومضطرب. على ضفة نهر دنيبر، القادم من هضاب فالداي الروسية، قابلت وجوهًا حائرة، فلا شيء يطمئنها ولا شيء ينبئ بقرب نهاية الصّدمة والخروج من نفق الانتظار. «في غضون عشر سنوات قام الشعب الأوكراني بثورتين كبيرتين . هو يحتاج إلى الراحة قليلاً، يريد تنفُّس الحياة» يقول ياكيف (42 سنة) أستاذ لغة إنجليزية. والشباب الذين التقيتهم كانوا أكثر الفئات قلقاً وتأثراً – خصوصاً – بسيل الأخبار والمقالات السوداوية المتضاربة فيما بينها، والتي يتداولها، ويروِّج لها الإعلام الروسي عن مستقبل البلد. «الثورة أنجبت حرباً إعلامية بين روسيا والغرب، وبينهما يقف الأوكرانيون غير مستوعبين – كما ينبغي – خيوط اللعبة» يصرِّح رومان، صحافي مستقلّ، يشتغل مراسلاً لوكالة أنباء أجنبيّة. «مع بداية الثورة تعرَّض كثير من المواقع الإلكترونية الإخبارية المقرَّبة من النظام السابق للقرصنة، كما برزت – في الأسابيع الماضية – مواقع إخبارية جديدة. النت الأوكراني بات مكتظّاً بالأخبار، والشائعات والصور المُفَبركة والفيديوهات المركَّبة» يتابع، ناصحاً إياي بالتركيز – خصوصاً – على ما يرد في الموقع الإخباري «برافدا» الأوكراني، بصفته أكثر المواقع الإخبارية قرباً من مصادر المعلومة . كلمة (البرافدا)، بمعنى الحقيقة باللغة الروسية ، والتي ارتبطت سنوات الحرب

الباردة باسم صحيفة الحزب الشيوعي السوفياتي سابقاً، المرادف الأمثل للبروباغندا، صارت في أوكرانيا ما بعد الثورة مرادفاً للمصداقية ولرجاحة الرأي. ولم تقتصر المعركة على الإعلام التقليدي فقط، بل شملت أيضاً مواقع التواصل الاجتماعي؛ فبينما يميل ثوّارالميدان إلى استخدام الفايسبوك وتويتر، يردّ عليهم أنصار روسيا من موقع (Vcontact)، الميديا الاجتماعية الثالثة من حيث عدد الزيارات في أوكرانيا. «في روسيا يَتّفق الشعب مع الكرملين على ضمّ شبه جزيرة القرم» يضيف رومان. وبوتين يُعَدّ عام 2014 الكاسب الأكبر؛ فنجاحه في المعركة الدبلوماسية مثّل انتصاراً داخلياً أيضاً، وارتفاعاً في مؤشّرات شعبيته، فقد وظّفت ورقة الضغط الاقتصادية للاستمرار في التقدُّم، فأوكرانيا الباردة تتزوَّد شتاءً بحاجيّاتها من الغاز الطبيعي من روسيا، بنسبة تقارب 70 ٪ من شركة (gaz prom)، وجيرانها الأوروبيون، الداعمون لثورتها يستوردون ما لا يقلّ عن 30 ٪ من حاجياتهم الغازية من موسكو أيضاً. من ثَمّةَ تظل روسيا – بالنظر إلى مخزونها الطاقوي – الرقم الأهمّ في المعادلة والطرف الأكثر ثقلاً في المنطقة مهما حاولت وسائل إعلام غربية التقليل من قيمتها ونفوذها، وظلّها يَتّسع في أوكرانيا التي لم نكن نسمع عنها كثيراً في السابق، قبل الثورة البرتقالية (2004) ثم ثورة الميدان (أكبر ثورة موالية للاتحاد الأوروبي في العالم) اللتين بعثتا صراعات سياسية قديمة متجدِّدة.

كييف، التي تبني مستقبلها ببطء، وترفع يديها بالدّعاء إلى إلسّماء، في كاتدرائية القديس فلاديمير الأورثودوكسية، وجدت نفسها مُجبَرة، غير مخيرة على قبول المعركة الدائرة على أرضها، حرب باردة باستراتيجيات ساخنة، هدفها الخروج منها، بأقلّ الأضرارالممكنة. بعض المحلّلين الروس حاولوا تبرير تدخُّل بلدهم في الشأن الداخلي لبلد مستقلّ بواجبها في الحفاظ على الاستقرار على حدودها، والاستجابة لرغبة شعب شبه جزيرة القرم لحمايتها من الحكومة التي تصفها بـالانقلابية، التي تشكَّلت مباشرة بعد ثورة 2014. ويقارن محلّلون روس الوضع الحالي بما حصل في كوسوفو (2008)، وإعلانها الانفصال عن صربيا. لكنها مقارنة لا تخلو من اختلافات، فكوسوفو لم تنفصل عن صربيا وفق خيار أحادي، بل بتوافُق أممي، وإجماع شعبي داخلي، أما روسيا فهي تقرِّربشكل انفرادي، وترفض سماع صوت شريحة واسعة من الأوكرانيين الرافضين لتدخُّلها في القضايا الداخلية. كيف – إذن – تتغاضى موسكو عن الحقائق الميدانية، وتواصل إصرارها على فرض الوصاية ولعب دور الأخ الأكبر على بلد مجاور لها؟ وذهب مسؤولون روس بعيدا في تشويه صورة ثورة شعب، باللعب على المصطلحات واتِّهام الناشطين بالمؤامرة وتلقّي أموال من جهات أجنبية غيرمحدَّدة وهو منطق متعارَف عليه بين الأنظمة القمعية التي تحاول دائماً وأد غضب الشارع، بتلفيق الاتِّهامات، تماماً كما حصل في تونس والقاهرة، وصنعاء وإدلب، وغيرها من المدن العربية الصامدة، حيث نعتت

الحكومات الحركات الاحتجاجية بالتآمر مع جهات أجنبية. هي تُهَم جاهزة توزِّعها القيادات الحاكمة المتصلِّبة، بالقول فقط، دون أدلّة.

على الطرف المقابل، تجنَّب الرسميون الأوكرانيون، والمعتصمون في الميدان الرد على الجار الروسي بالمثل، وظلوا يفكِّرون – فقط – في سبل مواصلة الطريق؛ فقدعاشوا ثلاثة أشهرمن الانتفاض، وأسبوعاً منالعنف الدموي بمزيج من الفخر والارتياب: فخر بالإنجاز رافقته أناشيد قومية تتغنّى بأوكرانيا واحدة موحَّدة، وارتياب من سيناريوهات المستقبل وخوف من تمدُّد المحطاتالدرامية التي ترافق تاريخ البلد المعاصر، خوفا – خصوصاً –من تدهور الوضع الاقتصادي المتململ، منذ سنوات، مع تراجع القدرة الشرائية للفرد، وتواصل تدنّي العملة المحلّيّة (1 يورو =13 هريفنا). البلد بحاجة عاجلة إلى مساعدات مالية، تضاف إلى ديونه الخارجية، جزء مهم منها مستحقّ لشركة (Gazprom).

السبت الثامن من مارس صباحا، يوم عطلة أسبوعية رافقته حركة كثيفة في الميترو. في اليوم العالمي للمرأة، ارتفع نشاط محلّات بيع الورد مجدَّداً، ولم تكن النسوة والفتيات يمررن إلا وتحمل الواحدة منهن وردة، أو باقة ورد بين يديها. في عيد المرأة تحوَّل الجو العام في المدينة من قلق إلى زهوّ وفرح، وتحوَّلت عبارات العزاء المتبادلة في الأيام السابقة، إلى تهانٍ

وتبريكات بعام سعيد. تزينت النسوة لعيدهن كما تتزين العروس ليلة الدخلة. توزَّعت خمس فتيات جئن بلباسهن الريفي التقليدي: اثنتان منهن بضفائر طويلة، والأخريات بشعرمُنسدل، بين مداخل الميدان، يحملن معهن سلالاً لبيع الورد. لم يكنّ يفرضن سعراً موحَّداً على بضاعتهن، ويتشاورن في السعر ويتقايضن، بحسب إمكانيات الزبونعلىالدفع. بشكل ذكرني بالباعة المتجولين في أبيدجان، وواغادوغو، حيث لا يوجد سعر موحّد، ويزداد ويقل بحسب حنكة الزبون في التفاوض. وبعد ساعتين، قبل منتصف النهار بقليل، كنّ قد انتهين من بيع كل ما عندهن من ورد وعدن من حيث أتين، ليحلّ محلهن باعة متجوِّلون من الرجال يعرضون، أيضاً ورداً، وماركات عطورعالمية مغشوشة. وفي زحمة الذاهبين والقادمين التقيت يانا (23 سنة)، وهي توزِّع أعلاماً أوكرانية صغيرة على المارّة، وتردِّد بصوتعال : «Ukraini! Slava» (المجد لأوكرانيا). «بعد ثلاثة أشهر سأُتمّ دراستي فيالجامعة، بكلية الاقتصاد. جميل أن تصادف نهاية دراستي بداية عهد جديد في البلد» تقول يانا القادمة من شرق البلاد، حيث تتمركز الغالبية الداعمة للرئيس الهارب، فيكتور يانوكوفيتش. يانا تحبّذ الحديث والتواصل مع أصدقائها بالروسية، وليس الأوكرانية، وتضيف : «أدرك أن المستقبل ليس واضحاً .حظوظي في إيجاد منصب شغل يتناسب مع تخصُّصي ضئيلة. كما أن أيّ وظيفة سأزاولها لن توفِّر لي الحدّ الأدنى من العيش الكريم». تبدو يانا، وعلى غرار آلاف الشباب ممن هم في سنِّها، متفائلة ومتناقضة مع نفسها فيآن معاً، هي تتنبّأ بمصير أفضل

لبلدها، وتقرّ : «لو أتيحت لي فرصة للسفر والعمل في بلد آخر، لن أتردَّد. منذ سنوات أحلم بالعيش في أميركا». هكذا تختصر حلمها في بقعة بعيدة عن أرض الأجداد. بعيدا جدا في بلاد العم سام. كثير من بني جلدتها هاجر إلى هناك، فلم لا تجرب هي أيضا حظها؟ ويقاسم نازار (26 سنة)، القادم من مدينة لفيف القريبة من بولونيا، مهد ثوارالميدان ما ذهبت إليه يانا .«أتممت دراستي في معهد الموسيقى، وأفكّر، منذ سنوات، فيعدم الاستقرار هنا، والبحث عن أفق آخر لي، في بلد آخر» .على خلاف يانا، ولأنه من الشرق، يحبِّذ نازار التحدُّث بالأوكرانية بدل الروسية، وهو يُحَمِّل الرئيس يانوكوفيتش، وابنه ألكسندر مسؤولية الوضع الاقتصادي الهشّ جدّاً للبلاد. «يانوكوفيتش وابنه وحاشيتهما نهبوا البلد، ورسَّخوا فيه الرشوة. وأيّ رئيس قادم لأوكرانيا يجب عليه تعلُّم الدرس، وعدم ارتكاب أخطاء سابقيه» يضيف. يانا مثل نازار كلاهما يتمنّى انضمام أوكرانيا إلى الاتحاد الأوروبي، شريطة أن لا تمسّ هذه المساعي الوحدة الترابية للبلد. «الروس – كشعب – إخواننا. لسنا نحمل حقداً عليهم» يقول نازار. فسخط الغالبية يَتَّجه صوب سياسة بوتين الانفرادية والتسلطية على أوكرانيا مع أن نازار يعتقد أن «المشكل ليس في بوتين، بل في ضعف الرئيس الفارّ الذي سمح للروس بتسيير أوكرانيا كما يشاؤون».

الحلقة الأضعف في سلسلة المتغيِّرات التي تلت ثورة الميدان هي شريحة المواطنين الأوكرانيين المقيمين في روسيا. بحسب رومان فهم

يدفعون ثمناً مضاعفاً بسبب التزام البعض منهم بخيارالثورة، ومشاركتهم رأي المعتصمين بإحداث القطيعة مع النظام الروسي. «على كل، لن يخسروا الشيء الكثير لو أجبروا على العودة إلى بلدهم الأم» يقول المتحدِّث نفسه. فهم يعانون خلف الحدود من ظروف جدّ صعبة، غالباً ما يجدون أنفسهم ضحية استغلال من طرف المؤسَّسات الإنتاجية، وورش الأشغال في روسيا، مع تأخُّر أرباب العمل في دفع أجورهم، كما أن جزءاً كبيراً منهم محروم من حقوق الضمان الاجتماعي، والتّغطية الصحيّة. ظروف سيِّئة لليد العاملة الأوكرانية في روسيا تكرَّست في السنوات الماضية، ازدادت سوءاً، مع إصرار ناشطي الميدان على استبعاد كلّ الرموز السوفياتية، والروسية من الواجهة، حيث تبنّوا أيام الثّورة شخصيّة شاعر أوكراني متمرد، رمزاً لثورتهم: تاراس شفتشينكو، الذي صادفت سنة 2014 الذكرى المئوية الثانية لميلاده (1814 – 1861). فقد نصب تمثال خشبي له وسط الميدان، وتداول شعراء محلّيّون على منصة الميدان (حيث كانت تُلقى الخطب السياسية فقط) لقراءة نصوص ومقاطع شعرية له، كما نُشِرت صورته على لافتات إشهارية توزَّعت على مختلف كبريات شوارع المدينة.

تاراس شفتشينكو ليس شاعر البلد فحسب، بل هو شاعر كوني، عميد الأدب الأوكراني، مناضل صلب، سُمِّيَت جامعة كييف باسمه، اشتُهِر – خصوصاً – بنصوصه المناهضة لحكم روسيا القيصرية، والمُحَرِّضة على إحياء الوعي القومي. تعرَّضَ للنفي وللمنع من دخول أوكرانيا عشر

سنوات كاملة، أيام القيصر نيكولا الأول، وعاش تحت المراقبة البوليسية حتى وفاته. شتاء 2014، صار شفتشينكو سَيّد الميدان ورمز الثورة الأوكرانية بلا منازع، ونصوصه الحماسية تُرَدَّد بصوت عالٍ، كما كان التونسيون عام 2011 يردِّدون نص أبي القاسم الشابي:

«إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر».

كان طيف شفتشينكو حاضرا في كل زاوية من زوايا الميدن. كنت أتخيله واقفا بين الثّوار، فخورًا بالأحفاد، يصافح المارّة ويجلس معهم، يقرأ لهم شعرًا ويلعب معهم شطرنجا، ثم يسير إلى المتحف الذي يحمل اسمه، ليكمل مخطوطاته التي لم تنته.

«آه لو كان شفتشينكوعلى قيد الحياة..!» يقول إيهور، الذي نصب طاولة صغيرة على طرف الميدان لبيع أقمصة صيفية تحمل صورة الشاعر، وأعلاماً أوكرانية مع صورة الشاعر في الوسط.

لم يطغ على صور شفتشينكو، المنتشرة في كل الميدان، سوى اعتصام حاشد نَظّمه شباب من التتار جاؤوا من مدينة سيمفروبول، عاصمة شبه جزيرة القرم للتنديد باستفتاء 16 مارس2014، بشأن انفصال شبه الجزيرة عن الوطن الأم، وإلحاقها بروسيا الاتِّحادية، حاملين شعارات مثل :«لا

للحرب في القرم»، «أوكرانيون إخوة»، مردِّدين بأعلى صوتهم شعارات بالروسية والأوكرانية والإنجليزية رافضة لخيار تقسيم البلد جزأين منفصلين.

كابوس سنوات الاتحاد السوفياتي ما يزال عالقاً في أذهان التتار، حين اتَّهَمَهم ستالين بالتعاون مع القوات النازية، وقام بترحيلهم قسرًا (200.000 شخص) إلى سيبيريا، مما تسبَّب في هلاك ما لايقلّ عن 40 ٪ من أفراد الشعب نفسه .هم مسلمون سنّيّون، يرافعون ضدّ تقسيم البلد وضدّ ضمِّهم إلى روسيا خوفاً من تكرارسيناريوهات القمع، على الرغم من الإغراءات المقدَّمة من موسكو، ووعودها لهم بالحفاظ علىهويَّتهم، وحمايتهم. التتار يمثِّلون حوالي 14 ٪من سكّان شبه جزيرة القرم (من مجموع أكثر من مليونَيْ نسمة، ذات أغلبية روسوفونية)، ولم يعودوا إلى موطنهم، منذ سنوات النفي إلا بداية التسعينات من القرن العشرين، أي بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، وهم يطالبون بالاعتراف بلغتهم والتعامل معهم باعتبارهم سكّاناً أصليين للبلد وليسوا فقط أقلية، فالتتارساهموا – تاريخياً – في تطوُّر المنطقة، ويفخرون بانتماء المفكر، والمُصلح إسماعيل غاسبيرالي (1851-1914) إليهم.

في حدود السّابعة والنصف مساءً تركت الميدان، والمحتجون التتار مازالوا هناك، يفترشون العراء، ويتبادلون خيبة أمل من الأيام القادمة. عدت إلى (Bessarabska) مجدّداً لألتقي هشام (34 سنة) فلسطيني الأصل، يؤجّر محلًّا صغيراً لبيع الأكل السريع، مقابل 1400 أورو شهرياً. «الإيجار غالٍ جداً. لكن لا خيار لي» يقول متحسّراً. يحلم هشام بتأسيس مطعم عربي متكامل، يعيل به نفسه وعائلته الصغيرة (زوجة وابنتان). أقاسمُ هشام شطيرة شاورما وأودّعه.

في شوارع كييف لم أجد أثرًا للشّرطة، فقد أجبرت على الانسحاب خارج المدينة بعد الثورة، باعتبارها – بحسب ثوّار الميدان – جزءًا من بنية النظام الحاكم القديم. الجيش هو المكلَّف بحماية مؤسَّسات الدولة المهمّة، مثل المطار.. الوضع الأمني في البلد إجمالاً غير مستقرّ، وبعض مدن شرق البلاد كانت قد بدأت هي أيضاً المطالبة بالانفصال عن حكومة كييف. التوتُّر السياسي كان في تصاعُد، والمستهدفون كانوا المواطنين البسطاء والمعتصمين في الميدان، الذين كان يتوجَّب عليهم الصمود أكثر أمام رياح التحوُّلات المتسارعة، والتشبث بمزيد من الصبر والانتظار لقطف ثمار الثورة.

بعد نهاية الرّحلة وفصولها، والعودة إلى البيت، متلهفا لشمس دافئة تنسيني أيام البرد، وجدت أني لم أحمل معي هدايا، ولا تذكارات، بل فقط ذكريات، بعضها حلو وبعضها الآخر مرّ، وصورًا وملاحظات أعدت صياغتها في هذا الكتاب، وعطورا وروائح، معلّقة في الذاكرة، لأناس قابلتهم ومدن زرتها، تتنوّع تضاريسها، من جبال وغابات وبحيرات وأنهار، وتتعدّد فيها الأقليات والديّانات، وتقف جميعها على صفيح ساخن.. مدن جنائنية ملتهبة، تختزن بحزم أسرارها، ولا تكشف سوى عن القليل من خباياها، وتستحق دائما أن نعود إليها.

بعد نهاية الرحلة وفصولها، أدركت أن الترحال، مهما اختلفت بقاعه، فهو يعيدنا باستمرار إلى بقاع عرفناها، إلى أمكنة عشنا فيها، وتنفسنا فيها رغبة الاكتشاف ولذّة الحلم.

السّفر إلى الخارج، ليس سوى عودة إلى الدّاخل.

المحتويات

استهلال 7

هذا الكتاب 13

من البلقان.. إلى الميدان 17

ليوبليانا: تمارين على محاكاة الصّخب الصّامت 21

غراد: الزّعيم يقرأ شعرًا 37

زاغرب: آلهة تتهيأ للرقص 42

سراييفو: أمشي خلف ظلّي.. وأردّد أنشودة طفوليّة 73

سربرنيتسا: غيمة واحدة في وداع الفاجعة 93

بلغراد: إشتراكيّ يُصفّق.. ورأسمالي يرقص 105

كييف: شفتشينكو يلعب الشطرنج 125

THE INFLAMED HEAVENS OF THE EAST

السندباد الجديد

جائزة ابن بطوطة 2014- 2015

مكتبة نوميديا 42

Telegram@ Numidia_Library

ما الذي بقي للسندباد الجديد، أو ابن فضلان عصرنا ليكتشفه في كوكب الأرض؟ الخطيبي الذي تجول في البلقان وصولا إلى أرض الصقالبة المسمون اليوم بالسلاف؛ من بحيرات سلوفينيا إلى سهول كرواتيا، ومن أزقة البوسنة والهرسك العتيقة إلى ساحات صربيا، عابرا الحدود بحثا عن الملامح الحقيقية لدول وشعوب تجمع بينها الجغرافيا، وتفرّقها الصّدامات الدّينيّة والإثنيّة، وصولا إلى أوكرانيا، أيام ثورة الميدان، هذا الرحالة يجيب في يومياته هذه عن سؤالنا الآنف حول وظيفة الرحالة الجديد، بقوله: اكتشفت، بعد ثلاثة أسابيع من الترحال، أن السّفر لا يُقاس فقط بالمسافات، وإنما أيضًا بالحالات النفسيّة التي يستشعرها الفرد، والتي تختلف بالانتقال من مكان لآخر، سواء كان قريبًا أو بعيدًا. فالسّفر الأكبر ليس سفرًا في الجغرافيا، بل هو سفر يعيدنا إلى ذواتنا. «نحن نسافر لتغيير الأفكار، لا لتغيير المكان»، هكذا كتب الفيلسوف الفرنسي إيبوليت تاين.

في "جنائن الشّرق الملتهبة" يخطو الرحالة المعاصر عبر ليوبليانا، غراد، زغرب، سراييفو، سربرنيتسا، بلغراد، كييف وينقل صورا وانطباعات وملاحظات التقطها بالعين والفكر والحواس معا، وهو يكتب بلغة رائقة، ويتصف وصفه وملاحظاته بالدقة والذكاء، وتحمل لغته ملامح من ميول الرحالة القدماء، لكنها أبدا تظل أمينة لانفعالات اللحظة، وتحاول أن تعيد صياغة الأسئلة بوحي من التوق إلى استكشاف عوالم البشر في أمكنتهم، وتتبع الأحوال والمصائر الإنسانية من خلال جوانب ظليلة وبعيدة عن المسلم به من الأخبار، بما يضيف إلى معارفنا وإلى الجمال الأدبي.

وقد حازت هذه اليوميات على جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة المعاصرة في دورتها الحادية عشرة عن جدارة واستحقاق ◆

ارتياد الآفاق
Irtyad Al-Afaaq
المركز العربي للأدب الجغرافي

ISBN 978-614-419-558-1

46 عاما في خدمة الثقافة العربية
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصيفي بناية
النجوم، ص.ب: 5460-11 بيروت 1107-2190
هاتفاكس 00961 1 707891/2
http://www.airpbooks.com